

# الرسائل الثلاث في الأصول الفقهية

كاملها وخلودها وعالميتها

مستفاد من مجموع محاضرات ودروس

الوالد المحيى السيد محمد بن السيد علوي بن السيد عباس المالكي  
المكي الحسني

ترتيب واختيار

نجيح ميمون

الهندونيسي

طبع بترخيص وزارة الاعلام

رقم : ٤٩٥٨ / م / ج

بتاريخ ١ / ١ / ١٤١١ هـ



حقوق الطبع محفوظة للدار

الطبعة الأولى

١٤١١ هـ — ١٩٩٠ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



# تقریظ و تقدیم

بسم الله الرحمن الرحيم

إن هذا الكتاب القيم الذي دُبَّجه يراع أخينا الناصح الأستاذ الناجح نجیح میمون الہندونیسى ، يعتبر بحق - فی نظری - موسوعة ميسرة لمبادئ وقوانين ومحاسن الرسالة الإسلامية .

کیف لا ؟ وقد جمعه الأستاذ الكاتب من دروس ومحاضرات وأبحاث والدنا العلامة الحبيب السيد محمد بن السيد علوي المالکي الحسنی .

لقد قرأت هذا الكتاب الجيد الممتع ، فرأيت النور يتدفق من بين سطوره ، وأن الأسلوب الذي كتب به هذا الكتاب ينبئ عن علم غزير وفتح أصیل ، لذلك فإني أقول راجياً أن يصدق الله ظني .

إن هذا الكتاب مما سيمكث في الأرض - إن شاء الله - لأنه يضم بين دفتيه ما ينفع الناس ، فجزى الله عنا سيدنا ونبينا محمداً ﷺ ما هو أهله ، وجزى الله سيدنا الوالد خير ما جزى به والداً عن أولاده ، ولله در المؤلف الأستاذ الناجح الذي قدّم هذا العمل الطيب المبارك . وأسأله تعالى أن يقر عينه بهذا الجهد في الدنيا بأن يطبع طباعة فاخرة ويظهر بإخراج بديع لينتشر في مشارق الأرض ومغاربها . وفي الآخرة بأن يراه في ميزان حسناته ، إنه سميع مجيب ، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبيه الأمين وآله وصحبه أجمعين .

ابراهيم بن شعيب المالکي



# مقدمته وتمهيد

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأولين  
والآخرين وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين .

أما بعد : فإن الله تعالى أرسل سيدنا محمداً ﷺ بالحنيفية السمحة  
والشريعة الجامعة التي تكفل للناس الحياة الكريمة المهيبة والتي تصل بهم إلى  
أعلى درجات الرقي والكمال في الدنيا والآخرة .

وفي مدى ثلاثة وعشرين عاماً تقريباً قضاها رسول الله ﷺ في دعوة  
الناس إلى الله تم له ما أراد من تبليغ الدين وجمع الناس عليه .

عموم الرسالة الإسلامية وخلودها :

ولم تكن رسالة الإسلام موضعية محددة يختص بها جيل من الناس دون جيل  
أو قبيل دون قبيل ، شأن الرسائل التي تقدمتها بل كانت رسالة عامة للناس  
جميعاً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها لا يختص بها مصر دون مصر ولا عصر  
دون عصر قال الله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ  
نَذِيرًا ﴾ ( الفرقان : ١ ) وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا  
وَنَذِيرًا ﴾ ( سبأ : ٢٨ ) وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ  
جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ  
وَرَسُولِهِ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾  
( الأعراف : ١٥٨ ) وفي الحديث الصحيح : « كان كل نبي يُبعث إلى قومه خاصة  
وَيُبعث إلى كل أحرَم وأسود » .

ومما يؤكد عموم هذه الرسالة وشمولها ما يأتي :

١ — أنه ليس فيها ما يصعب على الناس اعتقاده أو يشق العمل به قال الله تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ ( البقرة : ٢٨٦ ) وقال تعالى : ﴿ يَرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ ( البقرة : ١٨٥ ) وقال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ ( الحج : ٧٨ ) وفي البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن هذا الدين يُسَرُّ ولن يشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه » وفي مسلم مرفوعاً « أحبُّ الدين إلى الله الحنيفية السمحة » .

٢ — ان ما لا يختلف باختلاف الزمان والمكان كالعقائد والعبادات والحدود والمواريث جاء مفصلاً تفصيلاً كاملاً وموضحاً بالنصوص المحيطة به . فليس لأحد أن يزيد عليه أو ينقص منه . وما يختلف باختلاف الزمان والمكان كالمصالح المدنية والأمور السياسية والحرية جاء مجملًا ليتفق مع مصالح الناس في جميع العصور ويهتدي به أولو الأمر في إقامة الحق والعدل .

٣ — ان كل ما فيها من تعاليم إنما يقصد به حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال ، وبدهى أن هذا يناسب الفطر ويساير العقول ويجاري التطور ويصلح لكل زمان ومكان قال الله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ، قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ( الأعراف : ٣٢ ، ٣٣ ) وقال جل شأنه : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ

لهم الطَّيِّبَاتِ وَيَحْرُمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثُ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٦﴾ (الأعراف : ١٥٦ ، ١٥٧) .

### العدل والرحمة للعالمين :

والغاية التي ترمي إليها رسالة الإسلام هي تزكية الأنفس وتطهيرها عن طريق المعرفة بالله وعبادته وتدعيم الروابط الإنسانية وإقامتها على أساس من الحب والرحمة والمساواة والعدل وبذلك يسعد الإنسان في الدنيا والآخرة قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل : ٩٠) وقال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (الجمعة : ٢) وقال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء : ١٠٧) .

وبعد : فهذا مجموع لطيف نفيس في فرضية وضرورية العودة إلى الشريعة الإسلامية الغراء وبيان بعض محاسنها أخذته وجمعبته من مقالات شيخني مربي روحي وجسدي العلامة المحدث المسند سيدي الوالد الحبيب السيد محمد بن السيد علوي بن السيد عباس المالكي — حفظه الله وجزاه عنا خيراً كثيراً — التي كتبها في بعض مؤلفاته القيمة المباركة أو ألقاها في دروسه العامة أو أفادنا بها في بعض مجالسه الخاصة .

فأسأل الله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفع به نفسي وإخواني من المسلمين خصوصاً طلبة العلم بوطني إندونيسيا إنه سميع قريب مجيب .

كتبه

نجيح ميمون زبير  
الجاوي الإندونيسي

مكة المكرمة : ١٧ ربيع الثاني ١٤٠٨ هـ



## القرآن حجة الله البالغة

هو كلام الله العظيم ، وصراطه المستقيم ، وحجته الدامغة ونوره الساطع وسيفه القاطع لأعناق الكفرة ، ومنهله العذب الراوى من ظمأ الجهالة ، وعلمه الهادي من الضلالة ، وهو ينبوع الحكمة ، وميزان العدل ، وملاك كل الأمور ، معجزة المعجزات وآية الآيات ، يبقى بقاء الدهور محفوظاً من أيدي المحرفين . يتلى ويروى ولا يمل ، لذيد الأسلوب فصيح التركيب ، فيه آيات بينات ، ودلائل واضحات وأخبار صادقة ومواعظ راثقة ، وشرائع راقية وآداب عالية ، بعبارات تأخذ بالألباب ، وأساليب ليس لأحد من البشر بالغاً ما بلغ من الفصاحة والبلاغة أن يأتي بمثلها ويفكر في محاكاتها ، فهو آية الله الدائمة ، وحجته الخالدة ، كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، أنزله الله على رسوله ﷺ ليلبغه قومه ، وهم فحول البلاغة وأمراء الكلام ، وأبابة الضيم وأرباب الأنفة والحمية ، فبهرهم بيانه ، وأذهلهم إفتنانه ، فاهتدى به من صح نظره ، واستحكم عقله ولطف ذوقه ، وصد عنه أهل العناد ، والمكابرة واللجاج ، فتحداهم أن يأتوا بمثله فنكصوا ثم بعشر سور مثله فعجزوا ، ثم بسورة من مثله فانقطعوا ، فأفحم البلغاء ، وأسكت الخطباء وأدلى بالبرهان فانتصر فحق الإعجاز : ﴿ قُلْ لِّإِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ .

فإذا تدبرت آياته وسوره ، تجدها بلغت نهاية الإعجاز . أما من حيث الأغراض والمقاصد فتجدها يتكلم في كل موضوع بغاية الإبانة والجلاء ، ونهاية الإصابة والسداد ، فمن تشريع خالده وتهذيب بارع ، وتعليم جامع وأدب بالغ ، وإرشاد شامل وقصص واعظ ، ومثل سائر ، إلى حكمة بالغة ، ووعد ووعد ،

واخبار بمغيب ، وغير ذلك من الأغراض والمقاصد ، وقواعد التشريع في العبادات والمعاملات ، تلك القواعد التي لو اجتمع علماء التشريع من يوم أن خلق الله السموات والأرض إلى أن تقوم الساعة ، وتآزروا وتعاونوا ، لما أمكنهم أن يضعوا من أصول وقواعد العبادات مثل ما جاء في القرآن الشريف ، ولما أمكنهم أن يضعوا من أصول التشريع من المعاملات مثل ما جاء في القرآن الكريم من القواعد ، تلك القواعد الكافلة لانتظام شمل العالم من جميع الوجوه في تقرير الحدود والعقوبات ، وفي إقامة العدل في الحقوق المدنية ، وغير ذلك مما تعبت فيه فطاحل الفلاسفة وأهل الشرائع الوضعية الذين تراهم الآن يحورون ويدلون في مواد قوانينهم ، وكل أمة تضع قانوناً مخالفاً لقانون غيرها مع نسخ في المواد وإصلاح في مواضعها ، ولم يهتدوا إلى الآن إلى وضع قانون جامع لشتاتها كافل لراحة البشر .

ولقد كان فحول البلاغة لا يبرز أحدهم إلا في فن واحد من أنواع القول ، فمن يبرع في الخطابة لا ينبغي في الشعر ، ومن يحسن الرجز لا يجيد القصيد ، ومن يستعذب منه الفخر لا يستعذب منه النسيب ، ولأمر ما ضربوا المثل : بامرئ القيس إذا ركب ، وزهير إذا رغب ، والأعشى إذا طرب ، والنابعة إذا رهب .

وأما من جهة ألفاظه وأساليبه فلا تجد منه إلا عذوبة في اللفظ وتفوقاً في الأساليب وتجاوزاً في التراكيب ، ومناسبة في الكلمات والآيات ، ليس فيها وحشي متنافر ولا سوقي مبتذل ، ولا تعبير عويص من باب الألغاز ، ولا فواصل متعملة ، مع شيوع ذلك في كلام البلغاء وأهل الفصاحة المتروين ، حتى أنك لترى الجملة المقتبسة منه في كلام أفصح الفصحاء منهم ، ترفعه جمالاً وتشمله نوراً وتكسوه روعة وجلالاً ، إلى إجمال في خطاب الخاصة وتفصيل في تفهيم العامة وتكنية للعربي وتصريح للأعجمي وغير هذا مما يقصر عن إحصائه الإمام ﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ﴾ .

وأما من جهة معانيه فإنك تجدها من غير معين العرب الذين منه يستقون لاطراد صدقها وقرب تناولها واطمئنان النفوس إليها ، وابتكارها البديع من غير



مثال معهود ، من حجج باهرة وبراهين قاطعة ، وأحكام مسلمة ، وتشبيهات رائعة ، على تمازج وتواصل وبراءة من التقاطع والتدابير ، فهو من جملة نزهة النفوس وشفاء الصدور ، فهو الكتاب الخالد الذي لا تبدل لكلماته ولا ناسخ لأحكامه ولا ناقض ، لاتنال معانيه بالإحاطة عقول البشر ، ولا تحيط بفهمها القوى والقدر ، صالح لجميع الأمم ، كافل للسعادة في كل زمان ومكان ، نظمه رائق وطراره فائق ، وآياته منسجمة وفواصله غريبة ، واستهلاله جميل ، ووصفه سام ، لا يمكن المسير إلى قراره واستكناه أسرارهِ ، على مختلف العصور وتعاقب الدهور ، قوله جزل وحكمه فصل تبلى الأمم وهو على جدته ، وتختلف الدهور وهو على حالته ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُزِّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ تولى سبحانه وتعالى حفظه صيانة له ليبقى آية ناطقة بالحق ، وحجة قائمة على العالمين أبد الدهر ، ومعجزة دائمة لخاتم أنبيائه صلوات الله عليهم إلى يوم الدين . فلم يزل ولا يزال محفوظاً بحفظه مرعياً بكلاءته ، مصوناً بحمايته باقياً ظاهراً حتى يأتي أمر الله .

كما تكفل بحفظه وبيان معناه من لا ينطق عن الهوى ، وهو النبي ﷺ ، قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ أي من الأحكام والشرائع والأمثال والمواعظ ، وسير القرون الخالية ، وقصص الأمم الماضية والعلوم الكونية والنواميس العمرانية وغير ذلك مما حواه الذكر الحكيم من الأسرار التي لا تحصى ، والعجائب التي لا تستقصى ﴿ قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ حكم شامل قاطع دائم ، لا يمكن أن يصدر من أحد لا علم له بما يتجدد به على طول الزمان وإنما هو حكم الله الوهاب القوى ، المطلع على ما كان وما سيكون ، العالم بأن القرآن الكريم خارج عن طاقة البشر ، معجز كل من رام معارضته أو أراد مناهضته . وإذا لا يكون القرآن من كلام إنسان بل هو ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ جاء القرآن الشريف فخاطب القلوب بالموعظة والعقول بالدليل ولفت النظر إلى مافي الكون من آيات وعبر ، فانطلقت به الأفكار من قيودها وتحركت

بعد خمودها وجمودها ، فاستبان الحق ووضح النهج وقامت الحجة وانزاحت  
الشبهة .

ولقد كان للعرب أن يجمعوا من البلغاء والفصحاء من شاؤوا كما كانوا  
يجمعون للمباهاة والمباراة بالقول ، فيأتون بشيء من مثل ما أتى به ليبتلوا حجته  
وليربأوا بأنفسهم من عار الغلب ويصونوا دماءهم التي سفكها عنادهم  
واستكبارهم ، ولكنهم لم يجترئوا على شيء من ذلك ولم يقدموا عليه مع طول زمن  
التحدي وإمعانهم في التكذيب والتعدي ، وإذا عجز العرب عن المعارضة كان  
غيرهم أشد عجزاً .

جاء القرآن العظيم مشيراً إلى أمور كونية وأسرار إلهية كشفها العلم وأثبتها  
البحث كقوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ ﴾ وقوله : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ  
يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴾ .

نزل القرآن بهذا اللسان العربي الفصيح في عصر كانت البلاغة عند العرب  
في ريعان شبابها ورونتها ، والقوم كانوا يتفاخرون بأشعارهم حتى بلغت بهم  
الحالة إلى أنهم يسجدون للبيت البليغ من الشعر ، وعلقوا أشعارهم في الكعبة  
المشرقة اعتزازاً بها وشهادة لهم بالنبوغ في البيان . ولما عجزوا عن معارضته  
جحدوا فضله تعصباً لمعبوداتهم وتمسكاً بمعتقداتهم ، فقالوا إنه قول شاعر . قال  
تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ فقالوا إنه قول كاهن ، فقال تعالى :  
﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ فقالوا إنه أساطير الأولين فقال  
تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا  
الظَّالِمُونَ ﴾ فقالوا إنه يتقوله على ربه فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ  
الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾

فتبين لك بهذا أن العرب وهم أفصح الناس بياناً قد عجزوا عن تحدي  
القرآن الشريف لما فيه من المعاني البالغة والمواعظ الحسنة وضروب الأمثال  
وجوامع الكلم التي تشفي العلة وتبرد الغلة ، فما بالك بغير الناطقين بالضاد من

جميع أصناف البشر ؟ لا شك أنهم أقصر باعاً وأعجز همة وأحققر من أن يتحدى أحد منهم هذا القرآن الكريم . والرسول ﷺ الذي بلغهم هذا القرآن كان أمياً لم يعلمه معلم ولم يلقنه ملقن ولم يكن في نشأته من الشعراء ولا من الخطباء حتى تكون مندوحة لاتهمه ﷺ .

وقد أثر نزول القرآن ما لم يؤثره أي كتاب ، سماوياً كان أو غير سماوي ، في اللغة العربية التي نزل بها ، إذ ضمن لها حياة طيبة وعمراً طويلاً وصانها من كل ما يشوّه خلقها ويذبل غضارتها ، فأصبحت هي اللغة الخالدة بين اللغات القديمة التي انطمست آثارها ، فقد أحدث فيها علوماً جمّة وفنوناً شتى لم تخطر على قلب ولم يخطها قلم : منها اللغة والنحو والصرف والاشتقاق والمعاني والبيان والبديع والأدب والرسم والقراءات والتفسير والأصول والتوحيد والفقه ، فأصبح أولئك العرب ينابيع الحكمة ومصادر العلوم بعد أن كانوا في رعي الشاء والإبل بين الشيخ والقيصوم ، واشتغلوا بالقرآن عن عكاظهم ومجازهم حيث لم يجز على مألوفهم في النثر المرسل والسجع الملتزم ، بل هو آيات وفواصل يشهد الذوق السليم بانتهاء الكلام عندها ، فتارة تكون سجعاً ، وطوراً تكون مواضعة وازدواجاً ، وأحياناً لا يكون هذا ولا ذاك فنعمة الله علينا بإنزال القرآن — معشر المسلمين — نعمة جزيلة ومنة جليلة .

وحينما كان المسلمون في الصدر الأول على النهج الذي رسم القرآن الشريف كانوا في أعلى مراتب العز وأقصى درجات الشرف وهناء العيش ، ولما أهملنا أمر القرآن وتركنا تلاوته والعمل بما فيه تحولت الأحوال إلى نكد وسلب ، فلا حول ولا قوة إلا بك ، يا مقلب القلوب وفق قلوبنا وألستنا لتلاوة كتابك الكريم لنسير على منهاجه القويم على السير الذي ترضى به عنا . وقد قلت <sup>(١)</sup> في هذا المعنى حقق الله أمني وتجاوز عن سوء عملي :

(١) القائل هو السيد علوى المالكي رحمه الله تعالى ونفعنا به .

يا قادة العلم هبوا وانشروا همما  
هيا إلى العلم والقرآن ننصره  
هذا الكتاب الذي فيه سعادتنا  
الله أنزله ، بالحسن جملة  
طابت عبارته ، فاقت بشارته  
العلم آيته والعدل شرعته  
فيه المواعظ والأمثال فائقة  
يارب وفق جميع المسلمين لما  
نطوي بها جهلنا حقا ونزدجر  
أليس بالعلم والقرآن ننصر  
بشرى لنا فيه نسمو ونأتمر  
بالنور فضله ، يا قوم فاعتبروا  
رقت إشارته ، فالنور يزدهر  
والسيف حجته ، تزهو به الفكر  
ومنه تنتخب الأمثال والعبر  
فيه الصلاح وفيه النجاح والظفر

## مكانة السنة النبوية وفضلها

أمر الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه المبين بطاعة رسوله ﷺ وجعل طاعة الرسول ﷺ طاعة الله بعينها فقال : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ وفي هذه الآية نداء صريح وواضح بشرف رسول الله ﷺ وعلو شأنه وارتفاع مرتبته بما لا يقدر قدره ولا يبلغ مداه . قال الحسن جعل الله طاعة رسوله طاعته وقامت به الحجة على المسلمين ، وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ أي اتسوا برسول الله ﷺ واقتدوا به فهو المثل الأعلى للكمال الإنساني ، فلا بد من معرفة بدايته ﷺ وسيرته ومكارمه وما أنعم الله به عليه في حياته من حيث هو فرد ونبي ورب أسرة وأب وأخ وداع إلى الله وصراط مستقيم ونور وبرهان من ربه وقائد وحاكم في حربه وسلمه وفي عباداته ومعاملاته من حيث إنه قدوة ونبراس ومشرع للعالمين في كل زمان ومكان وخاتم النبيين ولم يحدد الحق تبارك وتعالى طاعة رسوله ﷺ بحد لأنه رسول الله ﷺ ، قد ائتمنه على رسالته ولم يقل ليطاع في شيء دون شيء فإنه لا يأمر بما لا يرضي الله عز وجل فذلك مستحيل . والطاعة هنا عامة ولا يعقل أن يأمر الرسول ﷺ أمراً فنطالبه بنص من القرآن على هذا الأمر لأننا آمنّا بأنه رسول الله ﷺ وأنه الصادق المصدوق وأنه لا يعقل أن يأمر إلا بما فيه رضا الله تبارك وتعالى ويقول الله سبحانه وتعالى أيضاً : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾

وهذه الآية عامة ، وإن كانت هي في شأن الفيء وتقسيمه لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فتكون هذه الآية نصاً صريحاً في كل ما أتانا به رسول الله ﷺ وبلغه إلينا من الأوامر وغيرها سواء كانت مذكورة في الكتاب أي القرآن المجيد أو السنة أي الأحاديث النبوية الثابتة المحكمة فإنه واجب علينا

امثاله والعمل به وكذا كل ما نهانا عنه من المنهيات والمنكرات المبينة في الكتاب والسنة فإنه واجب علينا الإجتنب منه والإنتهاء عنه .

ويقول الله سبحانه وتعالى أيضاً : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ .

فهذا أمر من الله تعالى بطاعة رسوله في حياته فيما أمر ونهى وبعد وفاته في اتباع سنته وذلك أن الله عمم الأمر بطاعته ولم يخص في ذلك بحال دون حال فهو على العموم حتى يخص ولا يخص .

ويقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ .

فقد أمر المؤمنين بالاستجابة لله ولرسوله والأمر للوجوب ، والاستجابة لهما هي قبول ما أمرا به ونهيا عنه في الكتاب والسنة والعمل بمقتضاها ، ويقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يَحْكُمُوا بِمَا شَآءَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ .

فإنه تعالى يقسم بنفسه الكريمة المقدسة أن لا يؤمن أحد حتى يحكم رسول الله ﷺ في جميع الأمور فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطناً وظاهراً ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ بالقلب مع العقل والقبول مع الرضا والموافقة مع الإقتناع ، قال ابن كثير أي إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجاً مما حكمت به وينقادون له في الظاهر والباطن فيسلمون لذلك تسليماً كلياً من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة كما ورد في الحديث « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جُئْتُ بِهِ » ويقول الله سبحانه وتعالى أيضاً : ﴿ وَمَا كَانَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ والمعنى : أنه إذا

حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحد مخالفته ، ولا اختيار لأحد ههنا ولا رأي ولا قول مع حكم الله تعالى ورسوله .

والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً وهي تصریح بوجود طاعة رسول الله ﷺ وأن طاعته طاعة الله ومخالفته مخالفة الله .

حجية السنة :

فالسنة هي الأصل الثاني للتشريع الإسلامي لذلك كان وجوب اتباعها والرجوع إليها والإعتداد عليها بأمر الحق سبحانه وتعالى وبأمر المشرع الأعظم .

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ﴾ ( المائدة : ٩٢ ) . وقال ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ ( آل عمران : ٣١ ) .

وقال ﷺ : « تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا مِنْ بَعْدِي : كِتَابُ اللَّهِ وَسُنَّتِي » (١) .

ومن هنا كان المنكر لحجيتها الذي يزعم أنه يعمل بالكتاب فقط أقل وأحق من أن يرد عليه أو يجادل ، لأنه من حيث زعم الحق وقع في الباطل ، ودعواه الطاعة والاتباع هي عين المعصية والابتداع .

فهذا القرآن ينادي بصريح الآيات البينات بنفي الايمان عن من لا يتحاكم إلى رسول الله ﷺ ويرجع الأمر إليه ثم ينقاد لحكمه ويدعن لأمره مع الرضا التام والتسليم الكامل والتفويض الصادق .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيَسْلَمُوا تَسْلِماً ﴾ ( النساء : ٦٥ ) .

---

(١) رواه مالك في الموطأ كتاب الجامع ، وانظر كتاب إيقاظ همم أولي الأبصار للاقتداء بسيد المهاجرين والأنصار للشيخ محمد بن سنة الفلاحي العمري فقد تكلم على السنة وأفاض بما لا مزيد عليه فشفى وكفى .

( ٦٥ ) ، وليس معنى تحكيمه والرجوع لقوله والإذعان إليه إلا الرجوع إلى السنة والإذعان إليها .

وهذا القرآن يخبرنا أيضاً بأنه لا اختيار لمؤمن مع حكم الله تعالى وحكم رسوله ﷺ ووصف من خالف ذلك بالعصيان فقال تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضللاً مبيناً ﴾ .

وقد أخبرنا ﷺ بما أطلعه الله عليه من الغيب عن حصول مثل هذا الإنكار والجحود ، فكان الأمر كما أخبرنا ، وأظهر الله معجزة نبيه ﷺ بظهور بعض الفرق التي تنسب نفسها إلى الإسلام وتدعي مثل تلك الدعوى والإسلام منهم براء .

فقال : « يوشِكُ رجلٌ منكم متكبِّئاً على أَرِيكَتِهِ يُحَدِّثُ بِحَدِيثٍ عَنِّي فيقولُ : بَيَّنَّا وبينكم كتابُ الله ، فما وجدنا فيه من حلالٍ استحللناه وما وجدنا فيه من حرامٍ حرَّمناه ألا وإن ما حرَّمهُ رسولُ الله ﷺ مثْلُ الذي حرَّم الله » (١) .

### وظيفة السنة في التشريع :

صلة السنة بالقرآن الكريم عظيمة ووثيقة جداً إذا علمنا أن وظيفة السنة النبوية تفسير القرآن الكريم والكشف عن أسرارهِ وتوضيح مراد الله تعالى من أوامره وأحكامه ، ونحن إذا تتبعنا السنة من حيث دلالتها على الأحكام التي اشتمل عليها القرآن إجمالاً أو تفصيلاً وجدناها ترد على هذه الوجوه الأربعة :

الأول — أن تكون موافقة لما جاء في القرآن الكريم فتكون واردة حينئذ مورد التأكيد ، وذلك مثل قوله ﷺ « إن الله يُمْلِي للظالمِ فإذا أخذه لم يُفلته » يوافق قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ﴾ ( هود : ١٠٢ ) .

(١) رواه أبو داود والترمذي .



وكذا جميع الأحاديث التي تدل على وجوب الصلاة والزكاة والحج والبر والإحسان والعفو وما أشبه ذلك .

الثاني — أن تكون بياناً لما أريد بالقرآن ، وأنواع هذا البيان ما يأتي :

(١) بيان المجمال — وذلك مثل الأحاديث التي بينت جميع ما يتعلق بصور العبادات والأحكام من كفيات وشروط وأوقات وهيئات ، فإن القرآن لم يبين عدد ووقت وأركان كل صلاة مثلاً ، وإنما بينته السنة .

(٢) تقييد المطلق وذلك كالأحاديث التي بينت المراد من اليد في قوله تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ ( المائدة : ٣٨ ) أنها اليمنى وأن القطع من الكوع لا من المرفق .

(٣) تخصيص العام ، كالحديث الذي بين أن المراد من الظلم في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ ( الانعام : ٨٢ ) هو الشرك فإن بعض الصحابة فهم منه العموم حتى قال : « وأئنا لم يظلم » فقال ﷺ « ليس بذلك إنما هو الشرك » .

(٤) توضيح المشكل كالحديث الذي بين المراد من الخيطين في قوله تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ ( البقرة : ١٨٧ ) فهم منه بعض الصحابة العقال الأبيض والعقال الأسود فقال النبي ﷺ « هما بياض النهار وسواد الليل » .

الثالث — أن تكون دالة على حكم سكت عنه القرآن ، وأمثلة ذلك كثيرة ومنها الأحاديث الواردة في تحريم الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها والأحاديث الواردة في تحريم ربا الفضل وتحريم لحوم الحمر الأهلية .

الرابع — أنها تكون ناسخة لحكم ثبت بالكتاب على رأي من يجوز نسخ الكتاب بالسنة ، وأمثلة ذلك كثيرة منها حديث : « لا وصية لوارث » فإنه ناسخ لحكم الوصية للوالدين والأقربين الوارثين الثابت بقوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ

إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ  
حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿البقرة : ١٨٠﴾ .

ولا غرابة في هذه المزاي التي جعلها الله للسنة النبوية إذا علمت أن هذه  
السنة هي أقوال وأفعال وتقريرات النبي الأعظم ﷺ وأن هذا النبي قد تكفل الله  
بعصمته وإمداده بالوحي وعصمته عن الخطأ والهوى في كل ما يأتي به من قرآن  
وسنة فيها بيان للقرآن أو تشريع مستقل .

قال الله تعالى : ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾  
(النجم : ٣ ، ٤) .

## وحدة الأديان السماوية في الأساس

شريعة الله إلى الناس واحدة ، ورسالاته إلى الأنبياء خالدة تمتد جذورها إلى الإنسان الأول وهو آدم أبو البشر ، وتنتهي فروعها بانتهاى هذا الجنس البشري وقيام الناس لرب العالمين ... وإذا كان محمد بن عبد الله ﷺ هو خاتم الرسل والأنبياء فإن رسالته لا تزال متصلة إلى يوم الناس هذا . وسوف تظل متصلة إلى يوم القيامة يحملها خلفاؤه والعلماء من أمته على توالي الأجيال والقرون .

ولقد شرع الله للإنسانية ديناً واحداً في جوهره وأصوله لم يتغير بتغير الأنبياء ، ولم يتبدل باختلاف الأزمنة والعصور بل كان أساسه توحيد الله والإخلاص في عبادته ، وكانت دعائمه توزيع العدالة بين الناس ، وتنظيم العلاقة بين الفرد والجماعة ، وتربية الضمير الديني ليكون بين يدي الناس ومن ورائهم قانوناً يحكم ويلزم ويراقب ويحاسب وهكذا كان الانبياء جميعاً منذ أبيهم آدم عليه السلام إلى خاتمهم محمد بن عبد الله ﷺ هم الظل الظليل الذي هياه الله ليفيئ الناس إليه . وينعموا به جيلاً بعد جيل .. بل هم المنارات الساطعة التي تظهر معالم الحق وتكشف المكنون من الأسرار ، وتضع أبصار الناس وبصائرهم على طريق الهدى والنور .

وإلى هذا المعنى الذي تحدثنا عنه وهو اتحاد الديانات السماوية جميعاً في جوهرها وأصولها يشير القرآن الكريم في مثل قوله تعالى في سورة الشورى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ وفي مثل قوله في

سورة النساء : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ .

ويسوغ لنا على هذا الأساس أن نعتبر الكتب السماوية جميعاً من حيث ماتضمنته من المبادئ الدينية الأساسية والمثل الأخلاقية كتاباً واحداً تتعدد أبوابه ولكن تتوحد أهدافه ومراميه ، وتختلف الأساليب في فصوله ولكن تتفق دلالاته ومعانيه ، ولعل هذا هو ما يفهم من القرآن الكريم حينما يتحدث عن الدين بوجه عام فيقول : ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ويذكر وصية إبراهيم لبنيه حينما قال لهم : ﴿ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ فالإسلام هو الدين الخالص الذي يدعو إلى عبادة الله والإنقياد لأمره وطاعته وتقواه مهما تعدد الأنبياء وكثرت الدعاة .

ولقد تحدث القرآن الكريم عن بعض الأنبياء السابقين ، ونبأنا عن الأسس التي أقاموا عليها دعواتهم ، وذكر لنا أخباراً عن الكتب التي أنزلها عليهم وأهمها التوراة والإنجيل اللذان نزلا على موسى وعيسى عليهما السلام ، ذلك بأن اليهودية والنصرانية هما الديانتان السماويتان السابقتان على الإسلام ، ولولا ما نشب بينهما من صراع ، وما شابهما من فساد واضطراب ، وما وقع فيهما من تحريف وتزييف طغى على الجوهر الأصيل ومسح الحقيقة فصير أن الله ولداً ، وجعل النبي إلهاً وإله الواحد ثلاثة ، لولا ذلك كله لاتحدت الديانتان في دين واحد لثقتيا بعد ذلك بالإسلام الخفيف وتنضويا تحت لوائه — ولا يبقى سوى دين واحد هو الإسلام الذي هو دين الله الخالص الذي شرعه لخدمة الإنسانية وإنقاذ العالم مما يحيط به من ويلات وأخطار .

ولأن مشيئة الله سبحانه قد سبقت بأن جعل دين محمد ﷺ دين العالمين فقد أخذ الله العهد والميثاق عليهم بأن يؤمنوا بمحمد إن جاءهم مصداقاً لما أنزل عليهم ، وكان معنى ذلك تنبيه الأمم والشعوب — التي ستدرك زمن محمد — إلى الإيمان به والتصديق بدعوته لأنها دعوة الحق الذي لا يأتيه الباطل ، ولأنها الدعوة العالمية التي كتب الله لها الخلود إلى أن تنفطر السماء وتنكدر النجوم وتبدل الأرض غير الأرض والسموات .

وفي ذلك يقول الله عز وجل : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ كما أخبر الله الأنبياء — فيما أنزل عليهم من كتب — بكرامة هذا النبي الكريم وذكر لهم من أوصافه وعلاماته ما يجلو غواشي الشك ويضيء طريق الحق . وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَإِذْ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ويقول : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ .

وجاء في التوراة والإنجيل أخبار عن النبي محمد وأوصاف تؤيد صدقه في نبوته وهي دلائل قوية كانت كافية لإقامتهم على المحجة الواضحة لولا ماران على قلوبهم من أكدار الحقد والحسد ، وحسبنا أن نذكر في ذلك ما روي عن ثعلبة بن هلال وكان من أحبار اليهود حينما سأله عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال : أخبرني بصفات النبي ﷺ في التوراة ، فقال : إن صفته في توراة بني هارون التي لم تغير ولم تبدل هي « أحمد من ولد اسماعيل بن إبراهيم وهو آخر الأنبياء ، وهو

النبي العربي الذي يأتي بدين إبراهيم الخفيف معه صلاة لو كانت في قوم نوح ما أهلكوا بالطوفان ، ولو كانت في عاد ما أهلكوا بالريح ، ولو كانت في ثمود ما أهلكوا بالصيحة وهو أُمي لا يكتب ولا يقرأ المكتوب ، وهو الحمّاد بحمد الله في الشدة والرخاء . صاحبه من الملائكة جبريل ، يلقي من قومه أذى شديداً ثم يدال عليهم ( أي تكون له الدولة ) فيحصدهم حصيداً ، تكون الوقائع يثرب منها عليه ومنها عليهم ثم العاقبة له .. معه قوم هم أسرع إلى الموت من الماء من رأس الجبل إلى أسفل صدرهم أناجيلهم ، وقربانهم دماؤهم « ليوث النهار رهبان الليل ، يرعب العدو مسيرة شهر ، يياشر القتال بنفسه ثم يخرج ويحكم لا حرس ولا حجاب معه ، الله بحرسه ... »

وكذلك جاء في إنجيل متى بالاصحاح الحادي عشر عدد ١٤ مانصه : « إن أردتم أن تقبلوا فهذا هو ايلياء المزعم أن يأتي » ومعناه إن أردتم أن تتبعوا فاتبعوا ايلياء ، وكلمة ايلياء توافق في مجموع حروفها على حساب قاعدة أبجد كلمة أحمد ، فكان في ذلك إشارة واضحة إلى الأمر باتباع نبي سيأتي اسمه أحمد .

وجاء في إنجيل برنابا في الفصل التاسع والثلاثين أن آدم لما انتصب على قدميه رأى في الهواء كتابة تتألق كالشمس نصها : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » فسأل الله عن معنى « محمد رسول الله » فقال له الله : إنه ابنك الذي سيأتي للعالم بعد آلاف السنين والذي متى جاء سيعطي للعالم الهدى والنور « ذلكم غيض من فيض وقليل من كثير مما حفلت به التوراة واشتملت عليه الأناجيل المختلفة ، وصدق الله إذ يقول في تلك الأوصاف والبشارات ﴿ يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ وهي في معظمها — إذا استثنينا ما جاء في إنجيل برنابا — رموز وإشارات خفيت على أذهانهم الكليّة ، وعشيت عنها بصائرهم العليّة ، ولولا ذلك ماسمحوا ببقائها في كتبهم وهم الأعداء الألداء للإسلام وبني الإسلام .

## الحاجة إلى هداية الله وفشل العقل وحده في إصلاح المجتمع

خلق الله الانسان وأهله ليكون خليفة في الأرض يعمرها بالخير والفضيلة والهدى ويدعو إلى العدل والمساواة والعطف والرحمة والأخذ بيد الضعيف وإغاثة الملهوف وتوجيه المجتمع بقدر ما يستطيع إلى وسائل الفلاح والصلاح .

ولكي تتحقق الحكمة الإلهية في خلق الانسان ويتبين المصداق الحق لقوله تعالى إرشاداً للملأ الأعلى ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ لا بد لقوة الخير في الإنسان من مدد يعينها ويقويها على سد منافذ الشر والطغيان وعلى استخدام الشهوة والغضب فيما يحفظ له نوعه وكيانه ، ولا شك أنه لو ترك الإنسان ونفسه فإنه لا يستطيع أن يحفظها من الاندفاع إلى الشر وسبيل الضلال بما ركب فيه من شهوة وغضب إندفاعاً يصل في كثير من المواطن إلى حد استباحة انتهاك الأعراض وسفك الدماء وسلب الحقوق ملياً ومستجيباً لبريق الدنيا وزخرفها وشهواتها ومغرياتها فيغلب شره خيره وفساده صلاحه عاجزاً عن تحقيق التوازن بين دواعي الخير ودواعي الشر ، وتنعكس عندئذ حكمة خلقه وجعله خليفة في الأرض وبذلك تصدق فيه نبوءة الملأ الأعلى حينما قال الله سبحانه وتعالى لهم : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ ( البقرة : ٣٠ ) .

فظهر بهذا وجوب وجود مدد قوي ثابت يعين الإنسان على تحقيق التوازن بين قوتي الخير والشر ويدفعه بما ركب فيه من عقل يعرف به الهدى من الضلال والرشد من الغي إلى الخير يكون فيه خليفة في الأرض يعمرها وينميتها وينشر فيها روح الأمن والطمأنينة والاستقرار .

فما هو هذا المدد العظيم ؟ ومن أي أصل ينبع ؟ أقرب جواب يعتز به الفلاسفة وهم الذين يعتبرون في نظر كثير من العلماء المفكرين الطبقة الراقية العالية المفكرة في المجتمع ( أنه العقل ) .

فهو في نظرهم الذي يحدد موازين الخير والشر ، والفضيلة والرذيلة ويتخذ منه دستور الحياة على مقتضاه .

والحق أن هذا الجواب فاسد ، وأن العقل لا يستطيع أن يقود الإنسان إلى الحكمة المقصودة من خلقه .

إن العقل لا يصح أن يكون مقياساً يحدد موازين الخير والشر وينظم الحياة لأن الإنسانية جريته حيناً من الدهر ولا تزال تتقلب في جمره بين حرب حامية تأكل الأخضر واليابس وتدمر الجهود التي تبذل في بناء الحضارات وإقامة المنشآت وبين حرب باردة تملأ القلوب خوفاً وهلعاً ، وهي في الحرين لا تعرف إنصاف مظلوم من ظالم ولا ترفع عن استعباد الضعفاء وسلب الحقوق والحريات وتهديد الأمن والإستقرار . وهي في الحرين لا تنسم روحاً من النسمات الروحية الفاضلة التي تعصم الإنسان من التبذل في نفسه وتقيه الارتكاس في حماة الاباحية الضالة والمادية المظلمة .

ان العقل لا يصلح أن يكون مقياساً يحدد موازين الخير والشر ، لأن العقول تتفاوت في إدراك الخير والشر ، وفي حكمها على الأشياء ومعرفة حكمها فيستحسن بعضها مالا يستحسنه الآخر ويستقبح بعضها مالا يستقبحه الآخر .

ان العقل لا يصلح أن يكون مقياساً لأن العقول عرضة لأن تطغى عليها في تفكيرها وتقديرها الشهوات والأهواء والتأثر بالشخصيات والإقليمات وسائر الأغراض الكامنة في النفس التي لا يستطيع أن ينزعها ويظهر النفس منها علم ولا فلسفة .

ان العقل لا يصلح أن يكون مقياساً لأنه محدود الإدراك لا يستطيع أن يحيط بمقتضيات الغد وحوادث المستقبل على حسب ما دبره العليم الخبير بخلقه ، فماذا



بقي إذا ؟ لم يبق إلا الهداية السماوية التي تعهد الله بها عباده والتي فيها المدد الذي وضعه أساساً للحياة الإنسانية وعلق به عمارة هذه الدنيا . وأكمل وأشرف وأشمل رسالة للهداية هي آخر الشرائع السماوية وهي : الشريعة الإسلامية .

مصدر التشريع وسلطته :

الشريعة الإسلامية هي أكمل وأشرف وأشمل رسالة للهداية وهي الشريعة التي ختم الله بها شرائع السماء وجعلها خالدة ، وكتب لها البقاء إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . لذا كانت ثابتة مستمرة قوية البناء محكمة النظام ، وافية بحاجات الأفراد والجماعات .

ومعلوم أن الشريعة الإسلامية تحتوي على الأصلين العظيمين والمصدرين الكريمين الأول : كتاب الله العظيم وصراطه المستقيم وحجته البالغة ، وآياته الدامغة ومنهله العذب الراوي من ظمأ الجهالة .

والثاني : السنة النبوية المنيرة الشاملة لكل خير وسعادة للبشر في دينهم ودنياهم . وهي ما أضيف إلى رسول الله ﷺ قولاً أو فعلاً أو تقريراً ، وهي قد رضي الله عنها وأوجب اتباعها والرجوع إليها ، والعمل بمقتضاها ، وأمر بطاعته ﷺ وجعل من تولى عن ذلك من الكافرين ، وعلق كمال محبة الله بتمام المتابعة لسنته ﷺ وجعل طاعة النبي ﷺ في متابعة سنته طاعة الله سبحانه وتعالى في اتباع قرآنه ، وبين أن جميع ذلك من الله وأنه لا ينطق عن الهوى بل هو وحي يوحى ، فالقرآن من الله والسنة من رسول الله ﷺ بأمر الله ورضاه ، فحيث يصح أن نقول : إن الذي وضع الأحكام وأحل الحلال وحرم الحرام هو الله سبحانه وتعالى .

لقد انتزع الإسلام سلطة التحليل والتحرير من أيدي الخلق أية كانت درجتهم في الدين والدنيا ، وجعلها من حق الرب سبحانه وتعالى وحده لا أحبار ولا رهبان ولا ملوك ولا سلاطين يملكون أن يحرموا شيئاً تحريماً مؤبداً على عباد

الله بل الله وحده هو صاحب الحق في أن يُحَلَّ ويحرم في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ .

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ ( يوسف ٤٠ ) .

وقال : ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ ( الأنعام ١١٩ )  
وقال : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ ( النساء ١٠٥ )

وقال : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ ( الأعراف : ٣ ) .

وقد اعتبرت الشريعة أن من تجرأ على التحليل والتحريم ولم يحكم بما أنزل الله فقد جاوز حده واعتدى على حق الربوبية في التشريع للخلق وأنه كافر وظالم وفاسق فقال : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ ( المائدة : ٤٤ ) وقال : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ( المائدة : ٤٥ ) وقال : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ ( المائدة : ٤٧ ) وأكد ذلك سبحانه وتعالى في موضع آخر بنفي الإيمان عمن لم يحكم بكتاب الله وسنة رسوله ، عند التشاجر في أي أمر فقال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يَحْكُمُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ ثُمَّ لَا يُجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيَسْأَلُوكَ فِيهِمْ لَعْنًا ﴾ ( النساء : ٦٥ ) .

وقد أكد تعالى هذا بتكرار أداة النفي والقسم فقال : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

ثم شرط تعالى في هذا التحكيم أن يتقبلوا بسعة صدر وطيب خاطر من غير قلق أو إضطراب فإن حصول الحرج والضيق عند ذلك من النفاق ولذا قال : ﴿ ثُمَّ لَا يُجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ ﴾ وقد أمر الله تعالى بالإنقياد انقياداً لا تردد فيه أبداً فقال : ﴿ وَيَسْأَلُوكَ فِيهِمْ لَعْنًا ﴾ .

وأمر المؤمن أن لا يكون له اختيار مع حكم الله ورسوله وانه ان اختار من الأحكام غير ما قضى به الله واختاره فقد ضل ضللاً مبيناً ، فقال سبحانه : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضللاً مبيناً ﴾ ( الأحزاب : ٣٦ ) .

وقد وصف الله القرآن الكريم حال المؤمنين المنقادين لأوامر الله ورسوله المذعنين للأحكام الشرعية فقال : ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ، ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقّه فأولئك هم الفائزون ﴾ ( النور : ٥١/٥٢ ) .

وقال في وصف ما يقابل المؤمنين وهم المنافقون : ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللّهِ وبالرّسول وأطعنا ثم يتولّى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ، وإذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم مُعْرِضُونَ ، وإن يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ، أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ( النور : ٤٧/٤٨/٤٩/٥٠ ) .

أما تحريم الحلال وتحليل الحرام ، فذلك أعظم وأشد ، إذ هو قرين الشرك بالله قال الله تعالى : ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلالٌ وهذا حرامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ ( النحل ١١٦ ) .

## التشريع الإسلامي وكماله

إعلم : أن الفقه الاسلامي جامعة ورابطة للأمة الإسلامية وهو حياتها تدوم مادام ، وتنعدم ما انعدم ، وهو جزء لا يتجزأ من تاريخ حياة الأمة الإسلامية في أقطار المعمورة ، وهو مفخرة من مفاخرها العظيمة .

ومن خصائصها : أنها لم يكن مثلها لأية أمة قبلها ، إذ هو فقه عام مبين لحقوق المجتمع الاسلامي ، بل البشري ، وبه كمل نظام العالم فهو جامع للمصالح الاجتماعية ، بل والأخلاقية ، وهو بهذه المثابة لم يكن لأية أمة من الأمم السالفة ، ولا نزل مثله على نبي من الأنبياء ، فإن فقهاء بين كفيات العبادات التي هي صلة بين العبد وربه : من صلاة وصوم وزكاة وحج ونظافة ، ( كغسل البدن كلا من الجنابة أو للجمعة أو للعیدین ، أو بعضاً وهو الوضوء عند أداء الفرائض الخمس في اليوم واليلة ) وسنّ أمور الفطرة : من ختان ، وقص شارب وسواك ، وتقليم أظافر ، ونتف إبط وحلق عانة .

ففي صحيح مسلم عن سلمان : « قال لنا أحد المشركين : إني أرى صاحبكم يعلمكم حتى يعلمكم الخِراءة فقال : أجل إنه نهانا أن يستنجي أحد يمينه أو يستقبل القبلة ، ونهانا عن الروث والعظام وقال : « لا يَسْتَنْجِي أَحَدُكُمْ بِأَقْلٍ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ » .

وأرشدنا الفقه إلى تجميل الثياب في الجمعة والعیدین ومس الطيب وآداب الأكل والشرب ، وما يؤكل وما يشرب وما يُترك ، كما أرشد إلى تحسين حال المجتمع العام : فأرشد إلى ما يحفظ الصحة وتجنب ما يضرها ، وهذب الأخلاق : فأمر بالصدق في المعاملات ، والوفاء بالعقود والعهود ، وأوجب ترك الذنوب : من

زنا وخمر ، وغيبة ونغمة ، وقذف وسعاية ، وشهادة زور ، وانحراف عن الأحكام ، أو تحريف للحلال ، أو حرام وغير ذلك .

فلو أن المسلمين عملوا بأحكام الفقه ، والدين كما كان آباؤهم لكانوا أرق الأمم وأسعد الناس !

كما أنه جعل للفقراء حظاً من مال الأغنياء بالزكوات والكفارات وهذا أساس متين يغني المسلمين عن المبادئ المستوردة كالإشترابية وغيرها ، كما أنه أصل كثير من الأعمال الخيرية التي تأسست لها الجمعيات الكبرى في أوروبا وأمريكا .

كما شرع الحج : ليحصل إجتماع عام لسائر الأمم التي تدين به ، ليستفيد بعضهم من بعض علومهم وأحوالهم ، فيتعاونوا ويتآزرُوا وفي ذلك إعانة لأهل الحرمين الشريفين ، ليكونا مركزين عظيمين للإسلام كما شرع اجتماعات آخر أصغر وأيسر في الجمع والأعياد .

وبين كيفية تأسيس العائلات ، فندب إلى الزواج ، وحث عليه ، وبين العقود التي تعتبر زواجاً ، وشروطها من ولّى وصدّق ، وشهود ، وما خالفها فهو زنا ، أو قريب منه في حق الأمة — دون الرسول فله في ذلك خصوصيات . ورخص في الطلاق لما عسى أن يقع من تشاجر الزوجين ، وما يتعلق بذلك من نحو إيلاء وظهار .

كما بين آداب دخول البيت : من الاستئذان والسلام ، وجعل احتراماً خاصاً لكل إنسان ، وهو ما يعبر عنه بالحرية الشخصية ، ويسدل الحجاب بين الرجال والنساء الأجنبية محافظة على النسل ، وإبعاداً للظنة وإراحة لكل ضمير . وجعل ضوابط للنسب والقراة والرحم ، ومن يعد قريباً من نسبك أو رحمك ومن لا .

حتى الولائم جعل لها آداباً :

وبين أحكام المعاملات : من بيع وإجارة ورهن وقرض وقراض ، وشركة وإبضاع ، وغيرها من المعاملات المالية التي تقتضيها القاعدة التي عليها مبنى علم الاجتماع البشري ، وهي أن الإنسان مدني الطبع ، محتاج إلى أبناء جنسه ، فهو مرشد إلى تأليف الجماعات المتعاونة في هذه الدار على الإقتصاد ، مانع من الربا الذي به خراب الجمهور من الأمة ، كما أنه مبين لفصل الخصومات ، سواء : في المال أو الدماء أو الأعراض .

وبين ما يلزم لحفظ المجتمع العام من نصب الإمام ، وشروط استحقاقه للإمامة ، وما يجب له من الطاعة وعليه من المشورة ، والعمل بالشرعية ، وإقامة العدل بين أصناف الرعية — مسلمين أو غير مسلمين .

ثم قسم السلطة ، فجعلها خططاً ، وهي : الإدارات المدنية ، ومنها : القضاء ، فعدد للقاضي خطته ، وبين للشاهد كيفية توثيق الحقوق ، وأمر بكتبتها وتبينها وعدم كتمانها ، وهكذا خطة المحتسب ، ثم بقية الخطط ، وحكم على من خرج عن طاعة الإمام أن يقاتل ، وإذا وقع حرب مع أمة أجنبية فبين القوانين الحرية ، ثم السلمية ، وأمر بحسن الجوار ، وإقامة الحدود على من أخاف السابلة مثلاً ، أو خالف نصوص الشريعة ، وبين التأديبات والزواجر والقصاص ورفع الأضرار .

وبالجملة : قد استقصى الشئون الاجتماعية وبينها ، حتى دخل مع الرجل بيته ، وحكم بينه وبين زوجته ، فبين ماله عليها ومالهها عليه ، وفصل ما عسى أن يقع بينهما من الخصومة ، حتى حكم بين الرجل وولده ، وبينه وبين نفسه ، حتى بعد مماته بين قسم ميراثه ، ودفنه وكفنه وقبره ، ثم أوصى بأيتامه خيراً ، وبين كيف يوصي على أولاده وبين قدر ما يوصي به ، وكيفية الحجر على السفه والترشيد .

كل ذلك لينتظم أمر الحياة ، ويعيش المسلم عيشة منتظمة يتفرغ معها لإعداد الزاد ليوم المعاد .

فالفقه الإسلامي نظام عام للمجتمع البشري ، لا الاسلامي فقط ، تام الأحكام ، لم يدع شاذة ولا فاذة ، وهو القانون الأساسي لدول الإسلام والأمة الإسلامية جمعاء .

وإن انتظام أمر دول الإسلام في الصدر الأول ، وبلوغها غاية لم تدرك بعدها ، في العدل والنظام ، لدليل واضح على ماكان عليه الفقه من الإنتظام ، وصراحة النصوص ، وصيانة الحقوق ونزاهة القائمين بتنفيذ أوامره مما لا يوجد الآن ، ودليل على ماكان لهاتيك الدول من التمسك بحبله المتين .

وما دخلت الأمم الكثيرة في الإسلام أفواجا ، واتسعت دائرة الإسلام ، فانتشرت الأمة الإسلامية مادة جناحيها من ( نهر الفانج ) في الهند شرقاً ، إلى أفريقيا ، ثم إلى أواسط أوروبا في زمن قليل ، إلا باحترام الحقوق ، والعمل بقواعد الفقه الإسلامي ، والتسوية بين جميع أجناس البشر التي كانت تحضنها في العدل ، وجمع شتات مكارم الأخلاق ومحاسن المعتقدات .

وهذه التواريخ الغربية وغيرها لم ينتقد واحد منها نظام العرب الذي كانوا عليه ، بل مدحوه بما لم يمدحوا به غيره ، واقتبسوا منه ، واختارته الأمم على ماكان من الأنظمة ، فانصرفت عنها إليه ، وثلت عروش ملوكها لأجله .

فالأمة الإسلامية لاهياة لها بدون الفقه ، ولا رابطة ولا جامعة تجمعها سوى رابطة الفقه ، وعقيدة الإسلام ، ولا تتعصب لأي جنسية ، فهي دائمة بدوام الفقه مضمحلة باضمحلاله .

فمهما وجد أهل الفقه واتبعوا كانت الأمة إسلامية ، ومهما انعدم الفقيه والفقهاء لم يبق للأمة اسم الإسلام !

ويجب على كل أمة إسلامية أرادت سن قانون أو دستور أن تراعي هذا المبدأ حفظاً للجامعة الإسلامية .

## الشرعة الإسلامية وواقع الحياة :

وشريعتنا — بحمد الله — تسير كل عصر وتصلح لكل جيل وتدور مع واقع الحياة . وفي أصولها التشريعية القوة الكاملة التي تمدنا بتشريعات حية نامية متطورة تكفل للناس في مختلف بيئاتهم وعصورهم العدالة والاطمئنان والحياة الكريمة الطيبة .

وقد استطاعت الشرعة أن تقدم الدليل على صلاحيتها وقدرتها عندما أتيح لها أن تطبق في دنيا الواقع ، فكانت فترة تطبيقها فترة فاضلة توفرت فيها العدالة الإجتماعية والكرامة الإنسانية وارتفعت فيها المثل العليا منارة تضيء لأجيال الإنسانية المقبلة سلم الخير والمجد ، لقد نعم الناس بالحياة السعيدة وتفرغوا لحمل رسالة تحرير العالم كله من أغلال الظلم وكابوس الجهل وظلمات الضلال .

وإن واقع الأمم الأخرى التي تعمل بأنظمة مغايرة لهذا الدين ليشهد لهذه الشرعة بالسمو والكمال ، إذ تضطر هذه الأمم أن تنازل عن بعض ما في تشريعها ونظامها ، وأن تستعير من الإسلام أموراً عديدة .

فالشرعة الإسلامية تتسع لكل ما يجدد للناس من أفضية وتقوم بتنظيم شؤونهم والوفاء بحاجاتهم مهما تباعدت ديارهم وتباينت أجناسهم واختلقت عاداتهم وطباعهم ، ولا يجحد ذلك إلا من سفه نفسه .

ولكن لما كانت قضايا الناس ومساائلهم لا تقف عند حد ولا تدخل تحت حصر ، كان من الجهل وقصر النظر طلب النص الصريح من القرآن والسنة الذي ينطبق على هذه الأمور المتجددة يوماً بعد يوم .

وهنا يتساءل الباحثون عن المسائل التي يمكن لهم فيها النظر والمراجعة والتغيير والتبديل والتي لا يمكن .

ويمكن أن تتضح هذه المسألة ويزول عنها أي إشكال إذا علم أن الأحكام في الشرعة الإسلامية من حلال وحرام ترجع إلى قاعدتين عظيمتين .



## القاعدة الأولى :

أدلة قطعية وصلت إلينا عن طريق قطعي ، فهي قطعية الثبوت ويدخل تحت هذه القاعدة النصوص التي وصلت إلينا بشكل متواتر ولا تحتل في دلالتها أكثر من معنى واحد ، كالأمر بالصلاة والنهي عن الزنا .

فهي مبادئ وأحكام قطعية لا يسع المسلم المؤمن أن يجحدها أو يشك فيها ولا احتمال فيها ولا خفاء ولم يقع فيها خلاف بين الفقهاء .

وهي أصول هذا الدين وأمهات الفضائل التي أجمع العالم الرشيد على حمدها واقتنع بجليل نفعها ، ولذلك جعلها الله سبحانه وتعالى في عبارات جلية واضحة ونصوص بينة لا تقبل تحريفاً ولا تأويلاً ولا جدلاً ولا مرأى وجعلها أم الكتاب التي يدور حولها كل ما جاء فيه من أحكام ويرجع إليها كل معاني عباراته ولم يعذر أحداً في الخروج عليها وحذر من التلاعب بتأويلها وتطويعها للأهواء والشهوات .

## القاعدة الثانية :

أدلة ظنية لم يتوفر القطع في طريق وصولها إلينا كأخبار الآحاد على اختلاف أنواعها أو لم يتوفر القطع في دلالتها ، كأن تدل على معنى مع احتمالها لمعنى آخر ، وهذه يدخلها الإجتهد والنظر ويدور المجتهد في فلك تفسيرها وبيان مدلولها فقط ولا يخرج إلى حد مخالفتها والخروج عليها بلا مبرر .

وهذه النقطة الدقيقة لا بد من ملاحظتها ، فالنص قد يحتمل أكثر من معنى واحد دون أن يكون ثمة ما يقطع بصحة معنى واحد منها دون المعاني الأخرى .

والطريق الذي يترجح به هذا المعنى المستفاد على المعنى الآخر المستفاد من نص واحد هو : الإجتهد والنظر والبحث .

كما أنه بالبحث والنظر والمراجعة يمكن ترجيح المعنى المرجوح في زمن آخر يقتضي ترجيحه لمصلحة .

## أصول الكمال والسمو في الشريعة الإسلامية :

والناظر في الفقه الإسلامي وأصوله وقواعده لا بد أن يسلم منصفاً برحابة أفق الشريعة وتمام اقتدارها وصلاحياتها على تنظيم حياة الناس وتكفلها بمعالجة شؤونهم وأنها لم تجر أحكامها على طريقة واحدة من التفصيل والبيان بل عاجلت بعض المسائل على الاستقلال ، وأدجت كثيراً من المسائل تحت قواعد كلية ، وتركت للمستنبطين من أولي العلم تطبيق هذه القواعد الكلية على المسائل الجزئية ماجد وما يجدد .

وعلى هذا نفهم قول الله تعالى : ﴿ مَا قَرَّرْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ وبهذا المعنى ينبغي أن نفهم معنى التطور والتجديد في الشريعة الإسلامية وهي رحمة محضة وعناية ربانية بهذه الأمة .

ولذلك جاءت الشريعة الإسلامية على نظام يحفظ هذا الانتظام وفي نسق يضمن التناسق التام بين الأصول والقواعد الثابتة وبين الحوادث والنوازل العصرية المختلفة . وهذا الانتظام والتناسق هو العامل الرئيسي الذي أراده الحق تبارك وتعالى لحفظ هذه الشريعة وبقاء هذا الدين مصوناً عن عبث العابثين وتخريب المخربين وتخريف الغالين وانتحال المبطلين .

وإذا علمت هذا فاعلم أيضاً أن هذا الانتظام والتناسق يعتمد في جوهره وسره على أصول يتصل بعضها ببعض ويكمل بعضها بعضاً هي تاج التشريع الإسلامي تاجه المتألىء في جلال وكمال ، وهي المحور الذي يرتكز عليه وهي سمات وصفات وأسس التطور والتجديد والكمال .

## الأول : فتح باب الاجتهاد :

أول تلك الأصول والركائز والسمات فتح باب الاجتهاد ، فالتشريع الإسلامي يقوم على الاجتهاد وذلك لأن الأحكام التي وردت نصوصها في الكتاب والسنة معدودة ومحدودة ، فقد ذكر العلماء رضي الله عنهم أن عدد الآيات التي

هي أصول الأحكام في القرآن لاتزيد عن خمسمائة آية وعدد الأحاديث التي هي أصول الأحكام خمسمائة حديث منتشرة في آلاف الأحاديث<sup>(١)</sup>، فأصول الأحكام في هذه الشريعة من القرآن والسنة ألف نص هي أساس هذا التشريع الإسلامي الضخم الذي بقي إلى يومنا يؤتي منافعه لأبناء هذه الملة .

ولقد علم القرآن المسلمين أن يجتهدوا وأن يستنبطوا وأن يسترشدوا بعلمائهم ومفكريهم ، يقول الله سبحانه في محكم آياته : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ ( النساء : ٨٣ )

وهي دعوة صريحة إلى الاستنباط والاجتهاد ، ولذلك حدثنا التاريخ عن الصحابة الفقهاء الذين عرفوا بالاجتهاد في الأحكام والأقضية في عهد رسول الله ﷺ .

وحدثنا التاريخ أيضاً عن الرسول ﷺ وكيف كان يدرّب أصحابه على القضايا والأحكام ويشجعهم على حرية التفكير وحرية الاجتهاد ويملأ قلوبهم ثقة وطمأنينة عند الخوف من الخطأ مع الاجتهاد .

فللمجتهد المصيب أجران وللمخطئ أجر ، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ ( الأحزاب : ٥ ) .

وعلى هذه السماحة المشرقة والاجتهاد الكريم الواسع قامت حياة المسلمين منذ فجرهم الأول ، فكان الصحابة رضوان الله عليهم يجتهدون ويشجعهم الرسول على هذا الاجتهاد ويباركه وتشربت نفوسهم الحرة مبادئ الإسلام فكانوا يختلفون في فهمهم للقضايا وفي فهمهم للأحداث ، ولكنه اختلاف الأحرار لا يعرفون لاجاة ولا خصومة ولا يتنازرون بالألقاب ولا يتراسقون بالتهم ولا يفكرون في أن يحجروا رأياً أو يقيدوا فكراً .

وأكبر شاهد ناطق موقفه ﷺ منهم يوم بني قريظة إذ قال لهم : « لَا

(١) انظر اعلام الموقعين لابن القيم والإكليل للسيوطي ومغنى المحتاج للشرييني .

يُصَلِّينَ أَحَدَ الْعَصْرِ إِلَّا فِي بَنِي قَرِظَةَ » ، فأدركهم وقت العصر في الطريق ، فقال بعضهم : لانصلي حتى نأتيها ، وقال بعضهم بل نصلي ولم يرد منا ذلك فذكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنف واحدة من الطائفتين وعلق على ذلك ابن عبد البر بقوله : ( هذه سبيل الاجتهاد على الأصول عند جماعة الفقهاء ) كما سن الرسول ﷺ لولاته في الأمصار أن يجتهدوا وكانوا يرون أن أكبر نعم الله على عباده هو أن يؤتيم فهماً في القرآن وفهماً في حديث رسول الله ﷺ وفهماً في قضاياهم .

وبهذا الفهم الكامل لروح الإسلام وبهذا الاجتهاد المتصل في يسر وسماحة وطلاقة سائر التشريع الاسلامي تطورات المسلمين من الجزيرة العربية إلى سهول الأرض وقمم جبالها أينما كانت الحياة ، فما أحسن المسلمون يوماً بقصور التشريع وما احتاجوا لحظة من زمن — والدنيا في أيديهم — إلى قوانين من غير شريعتهم ولا إلى مشرعين من غير فقهاءهم بل كانوا مشرعين لأنفسهم والإنسانية كافة حتى ليقول ( ويلز ) في كتابه ( ملاحظ تاريخ الإنسانية ) : إن أوروبا مدينة للإسلام بالجانب الأكبر من قوانينها الإدارية والتجارية .

ومشت الحياة بالمسلمين رخاء طيبة وحياتهم قوية عزيزة متطورة مع الخطو الإنساني السريع بفضل الإمدادات المتعاقبة من الدراسات الاجتهادية الحرة التي كانت سمة العالم الإسلامي وطابعه المميز حتى انحرف الناس عن المنهج الرباني فانحرفت بهم المركب وغرقت يوماً ونجت يوماً نجاة الغريق العريان .

الثاني : اعتبار المصلحة في التشريع :

ومن ركائز الكمال في الشريعة هو اعتبار المصلحة في التشريع الإسلامي وقد أشار العلامة عز الدين بن عبد السلام إلى هذا المعنى فقال في كتابه قواعد الأحكام : ( والتكاليف كلها راجعة إلى مصالح العباد في دنياهم وآخرتهم والله غني عن عبادة الكل ، لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضره معصية العاصين وإن مصالح الآخرة لا تتم إلا بمصالح الدنيا ) .

ويقول الإمام الشاطبي : ( والمعتمد أن الشريعة إنما وضعت لمصالح العباد علم ذلك بالإستقراء فإن الله يقول في بعثة الرسل وهي الأصل : ﴿ رسلًا

مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴿ ( النساء : ١٦٥ ) .

والتعاليل لتفاصيل الأحكام من الكتاب والسنة أكثر من أن تحصى ، كقوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ( البقرة : ١٨٣ ) وفي الصلاة ﴿ إِنْ الصَّلَاةُ تَنَهَيْتُكَ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ ( العنكبوت : ٤٥ ) وفي القبلة ﴿ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لئلا يكون للناس عليكم حجة ﴾ وفي القصاص ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ( البقرة : ١٧٩ ) وفي الجهاد ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا ﴾ ( الحج : ٣٩ ) فكل شيء في التشريع الإسلامي معلن بخير الناس ومصالح حياتهم ، وتلك حجة الله الكبرى في تشريعه على عباده وتلك رحمته بين خلقه فمن أدرك هذه الرحمة فقد فقه الإسلام وفقه تشريعه .

ولقد رى رسول الله ﷺ أصحابه على هذا النهج فكان يعلل لهم الأحكام على طريقة واضحة مشهورة بينة كقوله « كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ إِلَّا فُزُّوْهَا فَإِنَّهَا تُذَكِّرُكُمْ الْآخِرَةَ » وهو حديث صحيح وكقوله « كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ ادِّخَارِ الْحُومِ الْأَضَاحِيِّ لِأَجْلِ الدَّافَةِ فَادِّخَرُوهَا » .

والدافة قوم من الأعراب يسرون جماعات فلما هبطوا المدينة أيام عيد الأضحى أمر الرسول صحابته أن يدخروا الحوم أضاحيهم ليدفعهم إلى التصديق بها على هؤلاء القوم الذين وفدوا على مدينتهم ، فلما رحلوا وانتفت العلة زال معلولها فأمرهم الرسول بالادخار ، وسأله بعض أصحابه عن بيع الرطب بالتمر فقال : « أُيْنُقْصُ الرُّطْبُ إِذَا يَيْسَ ؟ فَقَالُوا نَعَمْ ، فَقَالَ : فَلَا إِذَا » .

وهو ﷺ كان يعلم أن الرطب إذا ييس نقص وزنه ولكنه تغاضى عن علمه ليعلم أصحابه فقه التشريع وليعلمهم أن العلة في تحريم البيع هو رجحان كفة على كفة . وفي هذا ظلم لا ترضاه عدالة الإسلام ويقول ﷺ في الصيد « فَإِنْ وَقَعَ فِي الْمَاءِ فَلَا تَأْكُلْ مِنْهُ لَعَلَّ الْمَاءَ أَعَانَ عَلَى قَتْلِهِ » .

جعل علة التحريم خشية أن يكون الصيد قد مات مختنقاً .

وبهذا جاء التشريع الاسلامي تشريعاً أصيلاً يحترم العقول احترامه للمنطق ويدير أحكامه على العلة القائمة فاكتسب المرونة التي تجعله تشريعاً خالداً نامياً رايياً لا يقف ولا يجمد عندما تنبثق في وجهه الأقضية والمسائل الطارئة .

يقول ابن القيم في اعلام الموقعين : ( ان شريعة الله مبناه في الحكم مصالح العباد في المعاش والمعاد وهي عدل كلها ورحمة كلها ومصالح كلها وحكم كلها ، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور وعن الرحمة إلى ضدها وعن المصلحة إلى المفسدة وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة .

فشريعة الله الخالدة كائن حي تتسع أحكامها للمصالح العامة بشرط أن لا يكون في ذلك إهدار حكم إلهي أو اعتداء على قاعدة إسلامية أو تبديل لشريعة الاسلام .

### الثالث : العناية بالقواعد الكلية الجامعة :

من أصول الكمال في الشريعة الإسلامية العناية بالقواعد الكلية الجامعة . أقامت الشريعة دعائم كلية وقواعد جامعة ينبنى على كل دعامة منها أصول وأحكام يستخرجها العارف بطبيعة النوازل العالم بمقصد الشارع في أمثالها ، ومن هذه القواعد الجامعة مثلاً قاعدة العبادات وهي أن الله سبحانه وتعالى لا يعبد إلا بما شرع ، ولذلك كانت العبادات كلها توقيفية لا تعلم إلا من جهة الله تعالى لأنه هو الذي يعلم ما يرضيه وما لا يرضيه ، وقد بين في كتابه وفي سنة رسوله ﷺ كل ما يتعلق بذلك ، فعبادة الله تكون بكتاب الله وسنة رسوله واتباع السلف الصالح .

### قاعدة المعاملات :

وهي أن المعاملات تطلق حتى يعلم المنع ، فما سكت عنه الشارع ولم يرد عنه أمر به أو نهى عنه أو تخيير فهو محل نظر ، وخلاصة ما قيل في هذا

الباب هو أن ما سكت عنه الشارع من المعاملات ولم يشتمل على ضرر يكون الأصل فيه الصحة ، ودليل هذه الوجهة هو أن العقود والمعاملات تنبني على عادات الناس وعرفهم ، ولذلك فهي تجري على ذلك ما لم يأت عنه نهي ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ وهو يقتضى أن كل شيء حلال إلا ما فصل تحريمه في القرآن والسنة ، فكل شرط أو عقد أو معاملة سكت عنها فإنه لا يجوز القول بتحريمها حتى يرد دليل على منعها أو يظهر اشتغالها على ضرر لان سكوتها عنها إنما هو رحمة لا نسيان كما روى الترمذي عن سلمان الفارسي أن رسول الله ﷺ قال : « الحلال ما أحل الله في كتابه وما سكت عنه فهو مما عفا لكم » ، ومثله ما أخرجه الدارقطني عن أبي ثعلبة أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله فَرَضَ فَرَائِضَ فلا تُضَيِّعُوهَا ، وَحَدَّ حُدُودًا فلا تَعْتَدُوهَا وَسَكَتَ عن أشياء رحمةً بكم غيرَ نِسْيَانٍ فلا تَبْحَثُوا عنها » .

ومن هذه الأحاديث والآيات يعلم أن الأصل في الأشياء الإباحة حتى يرد دليل خاص يدل على خلافها . وهذا معنى قول علماء التشريع ( المعاملات طلق حتى يعلم المنع ) .

وهناك دعائم أخرى مشهورة اعتنى العلماء بجمعها وترتيبها وتصنيفها وشرحها ونظمها وخدمتها خدمة كبرى ، منها : المشقة تجلب التيسير .

ومنها : الضرر يزال .

ومنها : الأمور بمقاصدها .

ومنها : اليقين لا يزال بالشك .

ومنها : العادة محكمة .

وطريق وضع هذه القواعد هي باستخراج القواعد العامة الفقهية لكل باب من أبواب الفقه ومناقشتها وتطبيق الفروع عليها . وأول من فتح هذا الباب سلطان العلماء عز الدين عبدالعزيز بن عبدالسلام حيث أرجع الفقه كله إلى قاعدة واحدة وهي اعتبار المصالح ودرء المفاصد ، وألف في ذلك كتابين يدعى أحدهما بالقواعد



الصغرى والآخر بالقواعد الكبرى كما قاله السيوطي في الأشباه والنظائر النحوية .  
وجاء العلامة بدر الدين محمد الزركشي فتبعه في القواعد وألف كتاباً  
ضمنه القواعد الفقهية وقبله كان الشيخ صدر الدين محمد بن عمر المعروف بابن  
الوكيل المتوفى سنة ٧١٦هـ ألف كتاباً في الأشباه والنظائر وتبع فيه ابن عبد السلام  
ثم جاء التاج السبكي وجمع أقسام الفقه وأنواعه ولم يجتمع ذلك في كتاب سواه ،  
ثم جاء العلامة سراج الدين عمر بن علي بن الملقن الشافعي المتوفى سنة ٨٠٤هـ  
فألف كتاباً في الأشباه والنظائر والتقطه خفية من كتاب التاج السبكي رحمه الله ،  
ثم جاء الإمام الحافظ جلال الدين عبدالرحمن السيوطي فنقح جملة من القواعد في  
كتابه ( شوارد الفوائد في الضوابط والقواعد ) ثم عمد إلى كتاب أوسع يضم  
جملة من العلوم الفقهية يقال لمجموعها الأشباه والنظائر .

#### الرابع : الدعوة إلى فتح باب العلم :

من أصول الكمال في الشريعة فتح باب العلم بالتأكيد على فضله  
والتحريض على اكتسابه وبيان شرف أهله ، ويمكن القول بأن من مفاخر الاسلام  
أنه أكبر مناصر للعلم وأعظم محرض على اكتسابه وكانت أول فقرة نزلت من  
القرآن تتصل بالقراءة والعلم .

ومهما بلغت درجة الإنسان في العلم والمعرفة فلا ينبغي له أن يحسب أنه  
وصل القمة أو بلغ النهاية بل عليه أن يعتقد ( ان فوق كل ذي علم عليم ) وليس  
في ذلك دفع إلى القعود بالهمة عن الاكتشاف والاكتساب بل معناه حث الهمة  
والتحريض على المزيد ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ ( طه : ١١٤ ) .

والمتعلم في الإسلام مفروض عليه أن يشيع بعلمه على غيره فلا يبخل به ولا  
يكتمه لأن كاتم العلم مهدد بالعقاب فيلجئ بلجام من نار ، والمتعلم في الإسلام  
مفروض عليه ألا يقنع بما حصل له من علم وألا يغتر بما وصل إليه وألا يستنكف  
من معرفة ما لا يعلم ومن السؤال عما يجهل ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ  
لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ( النحل : ٤٣ ) .



وقضية العلم في الإسلام أشهر من أن تذكر أو تحصر ، وآيات الكتاب وأحاديث سيد المرسلين فيها دلائل واضحات تشير بوضوح إلى جملة كبيرة من المسائل التي رفعت شأن العلم والعلماء والمتعلمين .

#### الخامس : عدم وجوب الالتزام بمذهب معين :

من أصول الكمال في الشريعة الإسلامية المرونة وعدم الجمود في التزام رأي معين أو مذهب خاص فيما شأنه الاجتهاد والنظر لأن النص الشرعي قد يحتمل أكثر من معنى واحد دون أن يكون ثمة ما يقطع بصحة معنى واحد منها دون المعاني الأخرى .

والطريق الذي يترجح به هذا المعنى المستفاد على المعنى الآخر المستفاد من نص واحد هو : الاجتهاد والنظر والبحث .

كما أنه بالبحث والنظر والمراجعة يمكن ترجيح المعنى المرجوح في زمن آخر يقتضي ترجيحه لمصلحة .

ولم يوجب علينا الشرع التزام معنى ظهر رجحانه عند إمام أو عالم مهما تغيرت الأحوال واختلفت الأزمنة .

بل عذر الخلق إذا ما اختلفوا فيها ورفع عنهم الحرج ومنح المخطيء منهم في اجتهاده أجرأ والمصيب أجرين تشجيعاً للبحث والتأمل لاستجلاء مافيه المصلحة الراجعة للجميع .

ولذلك وقع الخلاف في هذه المسائل والأحكام وهو رحمة الله على هذه الأمة وأن من فضل الله على الناس في هذا الاختلاف تكثير الطرق الموصلة للنجاة كما أن قلة الأصول في الحكم نعمة أخرى قصدها صاحب الشريعة حتى كان ينهى أصحابه أن يكثرُوا من السؤال لتبقى الأشياء على أصلها وهو الحل والإباحة ( ابن عابدين ١ / ١٠٩ ) .

ولم يكن أئمة الدين والفقهاء يلزمون الأخذ بمذاهبهم والتزام العمل بها بل

كانوا يرون غضاضة من هذا الخلاف وكان الواحد منهم إذا رأى المصلحة لا يأنف أن يرجع إليها .

فأبو حنيفة مثلاً كان يفضل الصدقة على حج التطوع فلما حج ورأى مشقته عاد عن قوله هذا إلى تفضيل الأخير ، ولحمد رأي في النجاسات عدل عنه لما ذهب إلى مرو ورأى بلوى الناس بها .

ومالك أيضاً كان يقول بأشياء ثم رجع عنها .

والإمام الشافعي إمام المذهب الشهير لما انتقل من العراق إلى مصر عاد فأنشأ مذهباً جديداً وترك مذهبه الأول ، إلا نحو سبع عشرة مسألة منه .

ولهذا كان السلف الصالح من العلماء يعذر بعضهم بعضاً إذا ما اختلفوا فيها ولا يعيب أحد منهم رأياً رآه غيره . ولا يخفى موقف الإمام مالك الذي لم يرض للخليفة هارون الرشيد أن يجبر جميع المسلمين على العمل بكتابه الموطأ مع شدة تحري الإمام مالك في روايته له وموافقة علماء الدين عليه وعلل مالك رفضه هذا بقوله : ان أصحاب رسول الله ﷺ تفرقوا في البلاد وقد يكون عند بعضهم من الأحاديث ما لم يبلغني ولو بلغني لغرت شيئاً مما دونته ، ولهذا كان الإمام المجتهد ينهى من يستفتونه أن يتخذوا فتواه ديناً يقلدونه أو يجعلوه سبباً للتفرقة وبناء على ذلك كان بعضهم يعمل باجتهاد غيرهم ترخساً أو موافقة لجماعة المسلمين .

ومن هذا ما روي عن الإمام أحمد رحمه الله : كان يرى أن الحجامة أو الفصد تنقض الوضوء فسئل عن رأى الإمام إحتجم وقام إلى الصلاة ولم يتوضأ هل يصلي الإمام أحمد خلفه .

فقال : كيف لا أصلي خلف مالك وسعيد بن المسيب .

وكان أبو حنيفة وأصحابه يرون الوضوء من خروج الدم ولكن أبا يوسف ( صاحب أبي حنيفة ) رأى هارون الرشيد احتجم . وكان مالك أفتى هارون بأنه لا وضوء عليه إذا هو احتجم فصلى أبو يوسف خلفه ولم يعد الصلاة .

وروى أن الشافعي رضي الله عنه ترك القنوت في الصبح لما صلى مع الجماعة الخفية في مسجد إمامهم بضواحي بغداد فقال كثير من الناس : فعل ذلك أدباً مع الإمام .

وأيضاً كان كبار علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم من مجتهدى السلف يتحاشون أن يسموا آراءهم الاجتهادية حكم الله أو شرع الله بل كان أعظمهم قدراً وأوسعهم علماً يقول : هذا مبلغ علمي واجتهادي فإذا كان صواباً فمن الله وإن كان خطأ فمنى ومن الشيطان .

وكان مما يوصي به النبي ﷺ أمير الجيش قوله : إذا حاصرت قوماً فأرأدوا أن تُنزلهم على حكم الله فلا تُنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك فإنك لا تدري أُنصيب حكم الله فيهم أم لا ( رواه أحمد ومسلم ) قال ابن القيم في اعلام الموقعين : لا يجوز للمفتي أن يقول هذا حكم الله أو أحل الله كذا أو حرم الله كذا تبعاً للشيء وجده في الكتاب الذي تلقاه عمّن قلده بل يقول هذا قول فلان .

وعلى هذا المنهج الفريد الحميد وبتلك الروح الخالصة الصادقة سار أئمة السلف الصالح رضي الله عنهم فكانوا بهذا أقرب في الوصول إلى الصواب وأسرع بلوغاً إليه إذا لمحوه وأقوى تمسكاً به إذا أدركوه . وكان شعارهم جميعاً في ذلك هو أن الرجوع إلى الحق من أمهات الفضائل وكان من أثر ذلك في علاقة بعضهم ببعض نمو روح التسامح فيما بينهم وقوة المحبة والأخوة في الله وفي سبيل الحق والتعاون على كل ما يوصل إلى رضا الله وإلى سعادة الأمة .

فبارك الله لهم في أعمارهم وأعمالهم وحفظها من أن تضيع في جدل عقيم سقيم ليس له من باعث سوى العناد للرأي والانتصار للمذهب مهما بعد عن الحق أو ظهر خطؤه .

وحفظهم سبحانه كذلك من التخاصم والتحاسد ومن كل ما يفسد القلوب ويحبط الأعمال ، فنفعهم بأعمالهم ونفع الأمة بها وهامى آثارهم لا زالت مناراً يهتدي به من أراد سلوك طريقهم ونموذجاً لمن وهبه الله ما وهبهم من فقه في

الدين وحرص على تحري الحق وأراد أن ينفع كما نفعوا ويشمر كما أثمروا .

ولعل من أسباب نجاحهم أنهم يغترفون من نهر واسع الجنبات عميق الغور ، ذلك هو كتاب الله وسنة رسوله يرتوي منه كل منهم على قدر استعدادة ولا يقابل من غيره بعتاب ولا ملام .

وكان بعضهم يفهم في الآية أو الحديث فهماً ويفهم غيره فهماً فلهما آخر فيناقش كل صاحبه بالتّي هي أحسن فإن كانت النتيجة اتفاقاً حمداً لله تعالى وإن كانت الأخرى عذر كل صاحبه وانصرفا صديقين متحابين مع ملاحظة أن اختلافهم هذا كان مع اعترافهم جميعاً بحجية هذه الأدلة جملة ووجوب الرجوع إليها وأن التعبد بها واعتبار حجيتها إنما ثبت بدليل قطعي متواتر وإنكار جملة هذه الأدلة وإن كانت تفيد الظن كفر صريح إذ هو في الحقيقة إنكار للدليل القطعي اليقيني الذي أمر بوجوب اعتبارها . وأحب هنا أن أنه على مسألة مهمة يقع فيها كثير ممن يظن به الخير ، وهي عدم التفريق في إنكار الآحاد بين إنكار خبر واحد في مسألة بخصوصها وبين إنكار جملة أخبار الآحاد قائلين في كلا الأمرين عند الحاجة والمباحثة : أن منكر الآحاد لا يكفر بل يفسق . وهذا خطأ أو جهل إذ يدخل في ذلك إنكار السنة النبوية كلها إلا شيئاً يسيراً — والواجب أن نفرق بين إنكار الآحاد جملة واحدة لأنها آحاد وبين إنكار خبر واحد بلا مبرر أو عذر ونقول أن منكر الآحاد ( أي جنس الآحاد ) جملة واحدة كافر لأنه في الحقيقة منكر للسنة النبوية إذ هي أغلبها آحاد وإن منكر خبر أو نحوه في مسألة بخصوصها فاسق إذا كان بلا مبرر أو عذر يقتضي ترك الأخذ به فينبغي ملاحظة هذه النقطة .

تنبيه :

هذا الذي ذكرناه في المسألة الخامسة من عدم وجوب الالتزام بمذهب معين ليس معناه أننا ندعو إلى نقض التقليد وهدم المذاهب حاشا وكلا بل أننا نرى أن الدعوة إلى ذلك من البدع التي تهدد الشريعة الإسلامية وتهدم الفكر الديني . وإنما نقصد بكلامنا هذا أهل العلم . وأما العامي فنرى أنه لا مناص له من التقليد ولا

مانع من اتباع مذهب معين من أحد المذاهب المتبوعة بلا تعصب ولا تعنت . كما أن المطلوب من أهل العلم أن يعتنوا بمعرفة الأدلة والأصول التي استنبط منها أئمتنا الأحكام والفروع وعليهم أن يبينوا ذلك لمن يجدون فيه الاستعداد والأهلية من المستفتين ليربطوهم بالفقه الإجتهادي عملياً والتزاماً وبالكتاب والسنة استدلالاً .

فما المانع من التقليد في مسائل أيدتها الأدلة مع معرفة تلك الأدلة ؟

وما المانع من ترك التقليد في مسألة لم يظهر لنا دليلها جلياً مع التماس العذر للإمام المجتهد فيما قال مما لم يظهر لنا دليله ؟

اننا نرى أنه لا يجب على العامي المقلد أن يعرف الدليل ولا يجب علينا ان نلزم الناس بتلقي الفقه مع الأدلة والبراهين لكن من وجدنا فيه الاستعداد لتلقي ذلك شجعناه على السير فيه وأخذنا بيده وأوقفناه على الأدلة وربطناه بالأصول .

## المذاهب الأربعة ليست متباعدة

زعم بعض الفرنج أنها متباعدة كتباعد فرق النصارى من الكاثوليك والبروتستانت والأرثوذكس ، وكتباعد الفرق اليهودية النسطورية والسامرية ونحوها ، وهذا ضلال مبين يراد به التضليل ، فإن فرق النصارى يكفر بعضهم بعضاً ، ولا يعده من النصرانية في شيء ولا يقتدي به حتى إنه لا يصلي هذا في كنيسة ذاك وكذلك فرق اليهود وكم وقعت بينهم من معارك وسالت من دماء .

أما مذاهبنا فليست كذلك بل يقتدي بعضهم ببعض ويعتبر كل واحد أخاه مسلماً ، نعم يعتقد أنه مخطئ في بعض من المسائل غير معين على القول بعدم تصويب المجتهدين ، أما على القول به فالكل على الصواب في كل المسائل وليس البون بينهم بعيداً إذ لم يكن بينهم خلاف في العقائد وإنما هو خلاف ثانوي في الفروع فقط التي هي محل الاجتهاد يأخذ فيها كل واحد بما قام عليه الدليل عنده للإكتفاء في أدلتها بالظنيات ولذلك كان كل واحد من الأمة يجل الآخر ، فقد أخذ أبو حنيفة عن مالك كما أخذ مالك عنه وأخذ الشافعي عن مالك ، وقال فيه : جعلته حجة بيني وبين ربّي وأخذ ابن حنبل عن الشافعي وأثنى بعضهم على بعض علماً وديناً ، وهكذا كان جلة أصحابهم بعضهم مع بعض ، ولم يقع بينهم الخلاف في كل فرع ، بل في بعض الفروع التي قامت ولكل حجة على رأيه .

بل قد اتفقوا في مسائل كثيرة فمنها ما وقع عليه إجماع الأمة معهم ومنها ماخالفهم فيها غيرهم وتلك المسائل التي فيها الاتفاق لا تنسب إلى واحد منهم ، فلا يقال في نحو وجوب الزكاة ، أو جواز القراض : إنه مذهب مالك والشافعي مثلاً ، فالسمع يمج ذلك فلا يضاف لكل واحد منهم إلا ما اختص به كما نص عليه العلماء ، ولذلك كان توحيد هذه المذاهب في هذه العصور صعباً ولا يزيد الأمر إلا شقاً آخر .

## معنى التطور في الشريعة

وهذه المرونة والتطور والمسايرة في الشريعة قد يفهمها قوم على غير المراد ويذهب بهم الوهم إلى تصور أن الاسلام لا يردّ شيئاً مما يجدد ويحدث كائناً ما كان مهماً لاح لهم بزعمهم صلاحه وترائي لهم فلاحه في غير عرض على قواعد التشريع وركائز الأحكام ودلائله ثم في عدم تدقيق أيضاً لهذا الذي يحدث هل النفع فيه حقيقي وهل صلاحه متأكد ؟

والذي يجب في هذا هو تصحيح التصور وتصفية النظر والغوص على الحجج والدلائل إلى الأعماق حتى لا نقع في شر من حيث نريد الخير وكم من مريد للحق لن يضييه . نعم ان صدر الإسلام رحب وبجالة فسيح ولكنه ليس يلزم من هذا أن يتقبل كل جديد دون تحقيق بالقبول ، حقا إن الإسلام يقبل اشياء ويرفض أشياء ففيه الحل والحرمة والوجوب والكراهة . فعلى المطالعين أن يعقلوا عن الكاتبين الإسلاميين — وفقهم الله — مرمى كلماتهم ومغزى عباراتهم من غير تسرع إلى التزام ما ليس مراداً مما قد يسبق إلى الأوهام وتسوء به الأفهام .

### تحديد معنى الاجتهاد :

وتحديد معنى الاجتهاد في الاسلام ليس تضييقاً بل هو ضبط لقواعده وحماية له لا بد منها وتنظيم لطرقه وترتيب لأصوله وتمييز لأفراده وإخراج للمتطفلين الادعاء من الذين يحسبهم الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، ولذلك يقرر أئمة الأصول ان الاجتهاد لما كان مرتبة عظمى شرعية ودرجة كبرى عليّة فإنه يحتاج إلى سعة في العلم وغزارة في المادة ومعرفة تامة بأنواع الأدلة الشرعية . ومن هنا كان مدعي الاجتهاد المطلق في هذه الأعصر الأخيرة ينبغي له أن يراجع نفسه ويتبصر في دعواه فقد يرى بعد التثبت أنه جاهل بمقدار الرتبة التي

يدعيها أو جاهل بمقدار نفسه وهو في كل ذلك ليس معذوراً وقد يأتي رجل يملأ شذقيه فخراً بدعوى الاجتهاد ويريد الاستنباط من الكتاب والسنة العربيين وهو لا يعرف قراءة العبارة سالمة من اللحن بل ولا يعرف علم النحو أصلاً الذي هو مفتاح العربية فبالله كيف يصح من أمثال هؤلاء دعوى الاستنباط كاستنباط السلف الصالحين أو أن يكونوا في عداد المجتهدين .

ولسنا ندعى غلق باب الاجتهاد بل هو مفتوح على مصراعيه إلى يوم القيامة ولكن لمن كان أهلاً لذلك وتحقق بأهلية الاستنباط وعرف مايجب أن يعرفه من ناسخ ومنسوخ ومجمع عليه فإن فضل الله واسع والمواهب منح والله ذو الفضل العظيم ، نعم ، قد يهب الله تعالى لبعض عباده فتحاً في القرآن وفهماً في السنة النبوية يؤهله لمراجعة بعض المسائل أو البحث في بعض القضايا أو استظهار فهم جديد أو الوصول إلى معرفة بعض الحقائق أو معرفة حكم بعض النوازل والوقائع وتأصيلها إلا أن ذلك لا يسمو به في مجموعه إلى درجة الاجتهاد المطلق بل يكون باحثاً أو صاحب نظر ورأي فدعوى الاجتهاد ممن ليس أهلاً له كلمة حق أريد بها باطل وموضوع فتنة عن حلية الحق عاطل . وتدليس للحق وتنفير عن متابعة السنة والجماعة ومخالفة للجمهور .

وكم بلينا معشر المسلمين بجهلاء يحبون تفريق كلمة الدين ويلمزون الأئمة المتقدمين ويوقدون نار الفتن ويشوهون سمعة العلماء ويحبون المخالفة في كل شيء وراء الصالح وإطاعة للشيطان وحباً للمادة وطلباً للرياسة وتفريقاً للكلمة وتشويشاً على العوام فيدخلون عليهم من باب الحث على النظر والبحث وطلب الأدلة إلى ( قضية أن الاجتهاد واجب والتقليد حرام ) هكذا يطلقون هذه القضية على ما هي عليه فيقتي العامي متخبطاً في متاهات من العلم الموهوم والبحث المزعوم فلا هو بقي على ما هو عليه ولا هم علموه ليصنعوا منه مجتهداً ، ومن ذا التي تقول بأن الاجتهاد واجب على جميع الناس وفيهم العوام والجهلاء وأرباب الصنائع فإن كان ينكر وجودهم في الأمة فتلك مكابرة للحس وإنكار للمشاهدة وإن كان يحرف بوجود العوام المحتاجين إلى التقليد فلا شك أن تقليد العوام لأهل



القرون الثلاثة السابقين من الأئمة الأكابر أولى وأحق من تقليد غيرهم فقد شهد النبي ﷺ لهم بالخيرية « خيرُ الناسِ قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » .

وهي شهادة صادقة فيهم رضي الله عنهم مع كونهم انضبطت مذاهبهم وصفت مشاربهم وتحررت أقوالهم وفتاويهم عن أتباعهم نقلاً صحيحاً أو متواتراً خلفاً عن سلف فكيف يترك اتباع هؤلاء العلماء إلى تقليد من لا يعرف مواقع الاجماع ولا أسرار التشريع ولا كيفية الاستنباط .

وليس القصد من هذا النيل من شخصية ذاتية أو تحقير أحد بعينه فإن ذلك أمر لا يعنى به العاقل ولا يتألم منه الجاهل — ما لجرح بميت إيلا — إنما القصد من ذلك إرشاد المسلمين وتنبيه المتعلمين لتقدير السلف الصالحين والحث على جمع الشمل وتوحيد الكلمة فإن ذلك أكمل وأهم وأحق ما بذلت له الهمم ونحن أحوج إلى الوثام من تفرق يذهب القوة والاستعداد فتداعى علينا الأمم تداعي الأكلة على القصاع ونحن في غمرة ساهون .

### تهمة باطلة وظن فاسد :

وقد ظن بعض القاصرين ممن لم يتشققوا بالثقافة الإسلامية الصحيحة قصور الشريعة الإسلامية عن الوفاء بحاجة البشر في كل زمان ومكان وصوروا هذا التحديد لسلطة التشريع في الإسلام تقييداً فوصفوا الشريعة بالجمود والخمود وادعوا زوراً وبهتاناً أنها لا تصلح لهذا الزمان ، ولا يمكن ان تسير روح العصر ، وان المسلمين مضطرون أن يلجأوا إلى القوانين الوضعية لتنظيم مجتمعهم وسياستهم بجانب علمهم بأحكام الفقه الشرعي الذي وصل إليه فقهاء العصور الأولى من الإسلام . وذلك أنه كلما اتسع العمران وارتقت العلوم والصناعات وتشعبت مذاهب الحياة تجددت حوادث ونبتت مشاكل وعرضت شئون لم يكن للناس عهد بها من قبل ، ولذا زعموا أنه لا يمكن الاكتفاء بالشريعة دون غيرها ولا يمكن الاقتصار على ما شرعته ، فراحوا يتخبطون في الاستمداد من القوانين الوضعية

ويعتبرونها أصلاً ومصدراً يناسب في نظرهم وتفكيرهم الحال زماناً ومكاناً دون  
تفريق بين أصل وفرع وظن وقطع .

ان صدور مثل هذه الفرية من أعداء الاسلام أمر ليس بغريب ولا مستنكر  
لأن أعداء الاسلام لم تكفهم الحروب السافرة والمؤامرات المدمرة التي تسفك فيها  
الدماء وتنتهك الأعراض وتسلب الأموال وتضاع الحقوق بل شنوا حروباً أخرى  
هي حرب الأكاذيب والمفتريات والتمويه والتضليل وتشويه الحقائق وقلب  
الأوضاع وخلق النقائص .

ولكن العجيب أن يصدر مثل هذا من أبناء بلدتنا ممن يتكلمون بألسنتنا  
وينسبون إلى الاسلام ويحسبون عليه في تنكر ظاهر لشريعتهم بعد أن اعترف بها  
وسلم بسعة أفقها أعداء الإسلام ، فهذا مؤتمر القانون المقارن المعقود في لاهاي  
سنة ١٩٣٧ الذي اجتمع فيه مفكرون وباحثون غربيون من مختلف بلاد العالم  
يقرر :

(١) اعتبار الشريعة الإسلامية مصدراً من مصادر التشريع العالمي .

(٢) اعتبار الشريعة الإسلامية شريعة حية .

(٣) اعتبارها قائمة بذاتها ليست مأخوذة من غيرها .

ولا شك أن هؤلاء الذين ينتسبون إلى الإسلام من أعظم دسائس  
الإستعمار وأخطر مؤامراته ومخططاته التي أراد بها تهديم المجتمع الإسلامي والإتيان  
عليه من القواعد ، إذ ألقى في أذهانهم — لما رضعوا في دياره ونشأوا في  
أحضانها — أن من أكبر أسباب انحطاط المسلمين اليوم وتخلفهم عن ركب  
الحضارة إنما هو تمسكهم بدينهم وان دين الإسلام هذا لا يتفق مع العلم وأن  
التمسك به لا يؤدي إلى التقدم والتطور بل يقف حجر عثرة في سبيل ذلك كله  
( هكذا قال أعداء الإسلام ) فتأثر بهذه الفكرة الجهلة من أبناء المسلمين وأجروا  
أقلامهم للإستعمار وأذنباه وقد فات هؤلاء الدساسين الفرق الشاسع بين ديننا  
ودينهم وان دينهم ورجاله وقفوا قبل فترة من الزمان في وجه النهضة الحضارية

الأوربية وعرقلوا تقدمها وقادوا حركة التخلف فوقفوا من دينهم موقف العدو  
الحاقد ، لكن ديننا ورجاله وقادته أقاموا صرح الحضارة الإسلامية الخالدة في  
التاريخ وهم الذين حركوا العالم من نومه وجهله فقادوا حركة النهضة إلى أوجها .  
وهؤلاء كبار رجال القانون والفكر في أوروبا يعلنون في الندوة العلمية  
المنعقدة في الرياض في شهر صفر سنة ١٣٩٢ هـ يعلنون إعجابهم بأحكام الشريعة  
الإسلامية وما سمعوه عن الحقائق عنها وحقوق الإنسان فيها . وقال رئيسهم  
( المسترماك برايد ) الأستاذ في جامعة دوبلن ووزير خارجية أيرلندا السابق : من  
هنا ومن هذا البلد الإسلامي يجب أن نعلن حقوق الإنسان لا من غيره من البلدان  
وقال زميله : ان أحكام القرآن في حقوق الإنسان هي لا شك تفوق على ميثاق  
حقوق الإنسان .

## السياسة العادلة جزء من الشريعة الإسلامية

قال ابن القيم في بدائع الفوائد ج ٣ ص ١٥٣ :

قال ابن عقيل : السياسة ما كان فعلاً يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد وإن لم يضعه الرسول ولا نزل به وحي لكنه لم يخالف ما نطق به الشرع وقد جرى من الخلفاء الراشدين من القتل والمثل مالا يجحده عالم بالسّنن ولو لم يكن إلا تحريق المصاحف كان رأياً اعتمدوا فيه على مصلحة وتحريق علي في الأخاديد وقال :

إني إذا شاهدت أمراً منكراً أجبته ناري ودعوت قنبراً

ونفي عمر نصر بن حجاج ( قلت ) هذا موضع مزلة أقدام وهو مقام ضنك ومعتك صعب فرط فيه طائفة فعطلوا الحدود وضيعوا الحقوق وجرأوا أهل الفجور على الفساد وجعلوا الشريعة قاصرة لا تقوم بها مصالح العباد وسدوا على نفوسهم طرقاً عديدة من طرق معرفة الحق من الباطل بل عطلوها مع علمهم قطعاً وعلم غيرهم بأنها أدلة حق ظنا منهم منافاتها لقواعد الشرع والذي أوجب لهم ذلك نوع تقصير في معرفة الشريعة . فلما رأى ولادة الأمر ذلك وأن الناس لا يستقيم أمرهم إلا بشيء زائد على ما فهمه هؤلاء من الشريعة أحدثوا لهم قوانين سياسية ينتظم بها أمر العالم فتولد من تقصير أولئك في الشريعة وإحداث هؤلاء أحدثوه من أوضاع سياستهم شر طويل وفساد عريض وتفاقم الأمر وتعذر استدراكه .. وأفرطت طائفة أخرى فسوغت منه ما ينافي حكم الله ورسوله وكلتا الطائفتين أتت من تقصيرها في معرفة ما بعث الله به رسوله فإن الله أرسل رسوله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل الذي به قامت السموات والأرض فإذا ظهرت أمارات العدل وتبين وجهه بأي طريق كان فثم شرع الله ودينه والله

تعالى لم يحصر طرق العدل وأدلته وعلاماته في شيء ونفى غيرها من الطرق التي هي مثلها أو أقوى منها بل بين بما شرعه من الطرق أن مقصوده إقامة العدل وقيام الناس بالقسط فأبي طريق استخرج بها العدل والقسط فهي من الدين ( لا يقال ) إنها مخالفة له فلا تقول ان السياسة العادلة مخالفة لما نطق به الشرع بل موافقة لما جاء به بل هي جزء من أجزائه ونحن نسميها سياسة تبعاً لمصطلحك وإنا هي شرع حق : فقد حبس رسول الله ﷺ في غيمة وعاقب في تهمة لما ظهر إمارات الريية على المتهم فمن أطلق كل متهم وخلي سبيله مع علمه باشتهاره بالفساد في الأرض ونقبة البيوت وكثرة سرقاته وقال : لا آخذه إلا بشاهدي عدل فقلوه مخالف للسياسة الشرعية وكذلك منع النبي ﷺ الغال من سهمه من الغنيمة وتحريق الخلفاء الراشدين متاعه كله وكذلك أخذه شطر مال مانع الزكاة وكذلك إضعاف الغرم على سارق مالا يقطع فيه وعقوبته بالجلد وكذلك إضعافه الغرم على كاتم الضالة ، وكذلك تحريق عمر حانوت الخمار وتحريقه قربة خمر وتحريقه قصر سعد بن أبي وقاص لما احتجب فيه عن الرعية وكذلك حلقه رأس نصر بن حجاج ونفيه وكذلك ضربه صبيغاً . وكذلك مصادرته عماله ، وكذلك إلزامه الصحابة أن يقلوا الحديث عن رسول الله ﷺ ليستغل الناس بالقرآن فلا يضيعوه إلى غير ذلك من السياسة التي ساس بها الأمة فصارت سنة إلى يوم القيامة وإن خالفها من خالفها ، ومن هذا تحريق الصديق رضي الله عنه للوطي ، ومن هذا تحريق عثمان رضي الله عنه للصحف المخالفة للسان قریش ، ومن هذا اختيار عمر رضي الله عنه للناس الأفراد بالحج ليعتمروا في غير أشهره فلا يزال البيت الحرام مقصوداً إلى أضعاف أضعاف ذلك من سياساتهم التي ساسوا بها الأمة وهي بتأويل القرآن وسنته . وتقسم الناس الحكم إلى شريعة وسياسة كتقسيم من قسم الطريقة إلى شريعة وحقيقة وذلك تقسيم باطل فالحقيقة نوعان : حقيقة هي حق صحيح فهي لب الشريعة لا قسيمتها ، وحقيقة باطلة فهي مضادة لشريعة الهدى . وكذلك السياسة نوعان : سياسة عادلة فهي جزء من الشريعة وقسم من أقسامها لا قسيمتها وسياسة باطلة فهي مضادة للشريعة مضادة للظلم للعدل ، ونظير هذا

تقسيم بعض الناس الكلام في الدين إلى الشرع والعقل وهو تقسيم باطل بل المعقول قسمان : قسم يوافق ما جاء به الرسول ﷺ فهو معقول كلامه ، ونصوصه ، لا قسم ما جاء به ، وقسم يخالفه فذلك ليس بمعقول وإنما هي خيالات وشبه باطلة لظن صاحبها أنها معقولات وإنما هي خيالات وشبهات ، وكذلك القياس والشرع فالقياس الصحيح هو معقول النصوص والقياس الباطل المخالف للنصوص مضاد للشرع ، فهذا الفصل هو فرق ما بين ورثة الأنبياء وغيرهم وأصله مبني على حرف واحد وهو عموم رسالته ﷺ بالسنة إلى كل ما يحتاج إليه العباد في معارفهم وعلومهم وأعمالهم التي بها صلاحهم في معاشهم ومعادهم وأنه لا حاجة إلى أحد سواه البتة وإنما حاجتنا إلى من يبلغنا عنه ما جاء به فمن لم يستقر هذا في قلبه لم يرسخ قدمه في الإيمان بالرسول ﷺ بل يجب الإيمان بعموم رسالته في ذلك كما يجب الإيمان بعموم رسالته بالنسبة إلى المكلفين فكما لا يخرج أحد من الناس عن رسالته البتة فكذلك لا يخرج حق من العلم به والعمل به عما جاء به ، فما جاء به هو الكافي الذي لا حاجة بالأمة إلى سواه وإنما يحتاج إلى غيره من قل نصيبه من معرفته وفهمه فبحسب قلة نصيبه من ذلك تكون حاجته وإلا فقد توفي رسول الله ﷺ وما من طائر يقلب جناحيه في السماء إلا وقد ذكر للأمة منه علماً وعلماً وكل شيء حتى آداب التخلي وآداب الجماع والنوم والقيام والقعود والأكل والشرب والركوب والنزول ووصف لهم العرش والكرسي والملائكة والجنة والنار ويوم القيامة وما فيه حتى كأنه رأى عين وعرفهم بربهم ومعبودهم أتم تعريف حتى كأنهم يرونه بما وصفه لهم به من صفات كماله ونعوت جلاله وعرفهم الأنبياء وأممهم وما جرى لهم معهم حتى كأنهم كانوا بينهم وعرفهم من طرق الخير والشر دقيقها وجليلها ما لم يعرفه نبي لأمته قبله ، وعرفهم من أحوال الموت وما يكون بعده في البرزخ وما يحصل فيه من النعيم والعذاب للروح والبدن ما جلى لهم ذلك حتى كأنهم يعاينوه ، وكذلك عرفهم من أدلة التوحيد والنبوة والمعاد والرد على جميع طوائف أهل الكفر والضلال ما ليس لمن عرفه حاجة إلى كلام أحد من الناس البتة ، وكذلك عرفهم من مكاييد الحروب ولقاء العدو

وطرق الظفر به مالو علموه وفعلوه لم يقم لهم عدو أبداً ، وكذلك عرفهم من مكائد إبليس وطرقه التي يأتهم منها وما يحترزون به من كيده ومكره وما يدفعون به شره بمالا مزيد عليه ، وبذلك أرشدهم في معاشهم إلى مالو فعلوه لاستقامت لهم دنياهم أعظم استقامة . وبالجمله فقد جاءهم رسول الله ﷺ بخير الدنيا والآخرة بخدافيه ولم يجعل الله بهم حاجة إلى أحد سواه ، ولهذا ختم الله به ديوان النبوة فلم يجعل بعده رسولا لاستغناء الأمة به عمن سواه فكيف يظن أن شريعته الكاملة المكمله محتاجة إلى سياسة خارجة عنها أو إلى حقيقة خارجة عنها أو إلى قياس خارج عنها أو إلى معقول خارج عنها ، فمن ظن ذلك فهو كمن ظن أن بالناس حاجة إلى رسول آخر بعده ، وسبب هذا كله خفاء ما جاء به على من ظن ذلك .

قال تعالى : ﴿ أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾ ( العنكبوت : ٥١ ) ، وقال تعالى : ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾ ( النحل : ٨٩ ) ، وقال تعالى : ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾ ( الاسراء : ٩ ) ، وقال تعالى : ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ( يونس : ٥٨ ) ، وكيف يشفى ما في الصدور كتاب لا يفي بعشر معشار ما الناس محتاجون إليه على زعمهم الباطل .

ويا لله العجب كيف كان الصحابة والتابعون قبل وضع هذه القوانين واستخراج هذه الآراء والمقاييس والأقوال أهل كانوا مهتدين بالنصوص أم كانوا على خلاف ذلك حتى جاء المتأخرون أعلم منهم وأهدى منهم هذا مالا يظنه من به رفق من عقل أو حياء نعوذ بالله من الخذلان : ولكن من أوتي فهماً في الكتاب وأحاديث الرسول ﷺ استغنى بهداً عن غيرهما بحسب ما أوتي من الفهم وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

## خصائص الفقه الإسلامي

الفقه : هو الجانب العملي من الشريعة ، والشريعة : كل ما شرع الله تعالى لعباده من الأحكام ، سواء بالقرآن ، أم بالسنة ، وسواء ما تعلق منها بكيفية الاعتقاد ، ويختص بها علم الكلام أو علم التوحيد أو بكيفية العمل ، ويختص بها علم الفقه .

وقد بدأت نشأة الفقه تدريجياً في حياة النبي ﷺ وفي عصر الصحابة . وكان سبب نشوئه وظهوره المبكر بين الصحابة هو حاجة الناس الماسة إلى معرفة أحكام الوقائع الجديدة . وظلت الحاجة إلى الفقه قائمة في كل زمان لتنظيم علاقات الناس الاجتماعية ، ومعرفة الحقوق والواجبات لكل إنسان ، وإيفاء المصالح المتجددة ودرء المضار والمفاسد المتأصلة والطارئة .

ويمتاز الفقه الإسلامي بعدة مزايا أو خصائص أهمها ما يأتي<sup>(١)</sup> :

### ١ - أساسه الوحي الإلهي :

يتميز الفقه عن غيره من القوانين الوضعية بأن مصدره وحي الله تعالى المتمثل في القرآن والسنة النبوية ، فكل مجتهد مقيد في استنباطه الأحكام الشرعية بنصوص هذين المصدرين ، وما يتفرع عنهما مباشرة وما ترشد إليه روح الشريعة ، ومقاصدها العامة ، وقواعدها ومبادئها الكلية ، فكان بذلك كامل النشأة ، سويّ البنية وطيد الأركان ، لاكتمال مبادئه ، وإتمام قواعده ، وإرساء أصوله في زمن الرسالة ونزول الوحي على النبي ﷺ ، وقال تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ ( المائدة : ٣ ) ، ولم يبق بعدئذ إلا التطبيق وفق المصالح البشرية التي تنسجم مع مقاصد الشريعة .

(١) راجع تاريخ الفقه الإسلامي للسائيس وتاريخ التشريع للخضري . والسياسة الشرعية لعبدالرحمن تاج ، والأموال ونظرية العقد للدكتور محمد يوسف موسى : ص ١٣٦-١٥٤ ، المدخل الفقهي للأستاذ مصطفى الزرقا : ف/٢-٤ و ٩٠ .



## ٢ — شموله كل متطلبات الحياة :

يمتاز الفقه الإسلامي عن القوانين بأنه يتناول علاقات الإنسان الثلاث : علاقته بربه ، وعلاقته بنفسه ، وعلاقته بمجتمعه . لأنه للدنيا والآخرة ، ولأنه دين ودولة ، وعام للبشرية وخالد إلى يوم القيامة ، فأحكامه كلها تتآزر فيها العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملة ، لتحقيق — بيقظة الضمير ، والشعور بالواجب ، ومراقبة الله في السر والعلن ، واحترام الحقوق — غاية الرضا والطمأنينة والإيمان والسعادة والاستقرار وتنظيم الحياة الخاصة والعامة وإسعاد العالم كله .

ومن أجل تلك الغاية : كانت الأحكام العملية ( الفقه ) وهي التي تتعلق بما يصدر عن المكلف من أقوال وأفعال وعقود وتصرفات ، شاملة نوعين :

### الأول : أحكام العبادات :

من طهارة وصلاة وصيام وحج وزكاة ونذر ويمين ، ونحو ذلك مما يقصد به تنظيم علاقة الإنسان بربه . وقد ورد في القرآن عن العبادات بأنواعها نحو ١٤٠ آية .

### الثاني : أحكام المعاملات :

من عقود وتصرفات وعقوبات وجنایات وضمانات ، وغيرها مما يقصد به تنظيم علاقات الناس بعضهم ببعض سواء أكانوا أفراداً أم جماعات . وهذه الأحكام تنفرع إلى مايلي :

( أ ) الأحكام التي تسمى حديثاً بالأحوال الشخصية : وهي أحكام الأسرة من بدء تكوينها إلى نهايتها من زواج وطلاق ونسب ونفقة وميراث ويقصد بها تنظيم علاقة الزوجين والأقارب بعضهم ببعض .

( ب ) الأحكام المدنية : وهي التي تتعلق بمعاملات الأفراد ومبادلاتهم من بيع وإجارة ورهن وكفالة وشركة ومداينة ووفاء بالإلتزام ، ويقصد بها تنظيم

علاقات الأفراد المالية وحفظ حق المستحق ، وقد ورد في المجموعة المدنية في القرآن نحو سبعين آية .

(ج) الأحكام الجنائية : وهي التي تتعلق بما يصدر من المكلف من جرائم ، وما يستحقه عليها من عقوبات ، ويقصد بها حفظ حياة الناس وأموالهم وأعراضهم وحقوقهم ، وتحديد علاقة المجني عليه بالجاني وبالأمة وضبط الأمن ، وقد ورد في المجموعة الجنائية في القرآن نحو ثلاثين آية .

(د) أحكام المرافعات أو الإجراءات المدنية أو الجنائية : وهي التي تتعلق بالقضاء والدعوى وطرق الإثبات بالشهادة واليمين والقرائن وغيرها ، ويقصد بها تنظيم الإجراءات لإقامة العدالة بين الناس . وقد ورد في القضاء والشهادة وما يتعلق بها في القرآن نحو عشرين آية .

(هـ) الأحكام الدستورية : وهي التي تتعلق بنظام الحكم وأصوله ، ويقصد بها تحديد علاقة الحاكم بالمحكوم . وتقرير ما للأفراد والجماعات من حقوق ، وما عليهم من واجبات .

(و) الأحكام الدولية : وهي التي تتعلق بتنظيم علاقة الدولة الإسلامية بغيرها من الدول في السلم والحرب ، وعلاقة غير المسلمين المواطنين بالدولة وتشمل الجهاد والمعاهدات ، ويقصد بها تحديد نوع العلاقة والتعاون والإحترام المتبادل بين الدول .

(ز) الأحكام الاقتصادية والمالية : وهي التي تتعلق بحقوق الأفراد المالية والتزاماتهم في نظام المال ، وحقوق الدولة وواجباتها المالية ، وتنظيم موارد الخزينة ونفقاتها ويقصد بها تنظيم العلاقات المالية بين الأغنياء والفقراء وبين الدولة والأفراد .

وهذه تشمل أموال الدولة العامة والخاصة ، كالغنائم والأنفال والعشور (ومنها الجمارك) والخراج (ضريبة الأرض)<sup>(١)</sup> والمعادن الجامدة والسائلة

(١) والعشور إنما ضربت على التجار الكفار وكذلك الخراج أو الجزية إنما هما على أهل الذمة .

وموارد الطبيعة المخلوقة ، وأموال المجتمع كالزكاة والصدقات والندور والقروض وأموال الأسرة كالنفقات والموارث والوصايا وأموال الأفراد كأرباح التجارة والإجارة ، والشركات وكل مرافق الإستغلال المشروع ، والإنتاج ، والعقوبات المالية ، كالكفارات والديات والفدية .

(حـ) الأخلاق أو الآداب ( المحاسن والمساوىء ) : وهي التي تحد من جموح الإنسان ، وتشيع أجواء الفضيلة والتعاون والتراحم بين الناس .

وكان سبب اتساع الفقه هو ما جاء في السنة النبوية من الأحاديث الكثيرة في كل باب من هذه الأبواب .

### ٣ — اتصافه بالصفة الدينية حلاً وحرمة :

يفترق الفقه عن القانون الوضعي في أن كل فعل أو تصرف مدني في المعاملات يتصف بوجود فكرة الحلال والحرام فيه ، مما يؤدي إلى إتصاف أحكام المعاملات بوصفين :

أحدهما : دنيوي يبنى على ظاهر الفعل أو التصرف ، ولا علاقة بالأمر المستتر الباطني ، وهو الحكم القضائي ؛ لأن القاضي يحكم بما هو مستطاع وحكمه لا يجعل الباطل حقاً . والحق باطلاً في الواقع . ولا يحل الحرام ولا يحرم الحلال في الواقع . ثم إن القضاء ملزم . بعكس الفتوى .

والثاني : حكم أخروي يبنى على حقيقة الشيء والواقع . وإن كان خفياً عن الآخرين . ويعمل به فيما بين الشخص وبين الله تعالى . وهو الحكم الدياني وهذا ما يعتمد عليه العالم المفتي المحتاط والفتوى : هي الاخبار عن الحكم الشرعي من غير إلزام .

ومنشأ هذه التفرقة : حديث النبي ﷺ فيما يرويه مالك وأحمد وأصحاب الكتب الستة : « إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ ، وَإِنكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَن يَكُونَ الْحَنَ <sup>(١)</sup> بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ ، فَأَقْضِي لَهُ عَلَى نَحْوِ مِمَّا أَسْمَعُ ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ

(١) ألحن بحجته أي أفطن وأحسن بيانا لها .

مسليم ، فإنما هي قطعة من النار ، فَلْيَأْخُذْهَا أَوْ لِيَتْرُكْهَا » ، وسبب وجود هذين الوصفين : أن الشريعة وحي الله لها ثواب وعقاب أخروي ، وهي نظام روحي ومدني معا ، لأنها جاءت لخيري الدنيا والآخرة . أو الدين والدنيا .

وتظهر ثمرة التفرقة مثلاً في الطلاق والأيمان والديون والإبراء والإكراه ونحوها ، وبناءً عليه اختلفت وظيفة القاضي عن وظيفة المفتي ، فالقاضي يصدر حكمه بناءً على الأمر الظاهر فقط ، والمفتي يراعى الباطن والظاهر معا ، فإذا اختلفا بنى حكمه على الباطن إذا بان له .

فمن أبرأ مدينه دون أن يعلمه بذلك ، ثم رفع الدعوى على المدين مطالباً سداد الدين ، فالقضاء يقضي له بقبض الدين ، والفتوى تمنعه من ذلك لوجود الإبراء .

وقد أدى وجود هذه النزعة الدينية أو الوازع الديني الداخلي إلى إضفاء صفة الهيبة والإحترام للأنظمة الشرعية ، وإلى صيانة الحقوق بجانب النزعة المادية التي تلاحظها فقط القوانين الوضعية : لأن الشريعة ترعى الإعتبارين معا : الاعتبار القضائي والاعتبار الدياني .

#### ٤ — ارتباط الفقه بالأخلاق :

يختلف الفقه عن القانون في تأثيره بقواعد الأخلاق ، — بل هو مكملها ومتممها — فليس للقانون الوضعي إلا غاية نفعية وهي العمل على حفظ النظام واستقرار المجتمع ، وإن أهدرت بعض مبادئ الدين والأخلاق .

أما الفقه فيحرص على رعاية الفضيلة والمثل العليا والأخلاق القويمة فتشريع العبادات من أجل تطهير النفس وتزكيتها وإبعادها عن المنكرات وتحريم الربا بقصد بث روح التعاون والتعاطف بين الناس ، وحماية المحتاجين من جشع أصحاب المال ؛ والمنع من التفرير والغش في العقود وأكل المال بالباطل وإفساد العقود بسبب الجهالة ونحوها من عيوب الرضا من أجل إشاعة المحبة وتوفير الثقة ،

ومنع المنازعة بين الناس والسمو عن أدران المادة ، واحترام حقوق الآخرين :  
والأمر بتنفيذ العقود قصد به الوفاء بالعهد : وتحريم الخمر للحفاظ على مقياس  
الخير والشر وهو العقل .

وإذا تآزر الدين والخلق مع التعامل ، تحقق صلاح الفرد والمجتمع ،  
وسعادتهما معاً وتبياً سبيل الخلود في النعمى في عالم الآخرة ، والأمل بالخلود هو  
مطمح البشرية من قديم الزمان ، وبذلك تكون غاية الفقه هي خير الإنسان حقاً  
في الحال والمآل ، وإسعاده في الدنيا والآخرة .

ثم ان التأثير بالدين والخلق يجعل الفقه أكثر امتثالاً وأشد احتراماً وطاعة ،  
أما القوانين فيكثر الإفلات من سلطانها .

#### ٥ - الجزاء على المخالفة دنيوي وأخروي :

يمتاز الفقه عن القانون الذي يقرر جزاء دنيوياً فقط على المخالفة بأن لديه  
نوعين من الجزاء على المخالفات : الجزاء الدنيوي من عقوبات مقدرة ( الحدود )  
وغير مقدرة ( التعازير ) ، على الأعمال الظاهرة للناس ، والجزاء الأخروي على  
أعمال القلوب غير الظاهرة للناس ، كالحقد والحسد وقصد الإضرار بالآخرين إذا  
اتخذ مظهراً إيجابياً ، وعلى الأعمال الظاهرة التي لم يعاقب عليها في الدنيا ،  
إما بسبب إهمال عقوبتها ، كتعطيل الحدود اليوم في أغلب الدول ، أو لعدم إثباتها  
في الظاهر ، أو لعدم اطلاع السلطة عليها .

كذلك الجزاء في الفقه إيجابي وسلبى ، إيجابي لأن فيه ثواباً على طاعة  
الأوامر وامتنالها ، وسلبى لأنه يقرر ثواباً على اجتناب النواهي والمعاصي والكف  
عنها . أما القانون فيقتصر على تقرير جزاءات سلبية على مخالفة أحكامه ، دون  
تقرير ثواب على حالة امتثال قواعده .

#### ٦ - النزعة في الفقه جماعية :

أي أن فيه مراعاة لمصلحة الفرد والجماعة معاً ، دون أن تطغى واحدة على  
الأخرى ، ومع ذلك تقدم مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد عند تعارض

المصلحتين ، كما أنه عند تعارض مصلحة شخصين : تقدم مصلحة من يصيبه أكبر الضررين ، تطبيقاً لقاعدة « لا ضرر ولا ضرار » و « يدفع أكبر الضررين بالأخف منهما » .

فمن أمثلة رعاية مصلحة الجماعة : تشريع العبادات من صلاة وصوم ونحوهما ، وحل البيع وتحريم الربا ، وتحريم الإحتكار ثم البيع بضمن المثل . ومشروعية التسعير الجبري ، — مع اختلاف بين العلماء — وإقامة الحدود على أخطر المنكرات . وتنظيم الأسرة ، ورعاية حقوق الجار ، والوفاء بالعقود ، والبيع الجبري للمصلحة العامة كبناء المساجد والمدارس والمشافي ، وإنشاء المقابر ، وتوسيع الطرق ومجاري الأنهار .

ومن أمثلة تقييد حق الفرد عند ضرر الجماعة ، أو حدوث ضرر أكبر : عدم إلزام الزوجة بطاعة زوجها إذا أضر بها ، لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُمَسْكَوْهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ﴾ ( البقرة : ٢٣١ ) ، وعدم إطاعة الحاكم إذا أمر بمعصية أو تنكّر للمصلحة العامة ؛ لأن الطاعة في المعروف ، ولقول رسول الله ﷺ فيما رواه أحمد : « السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحبّ أو كره مالم يؤمر بمعصية ، فإن أمر بمعصية ، فلا سمع ولا طاعة » .

ومن أمثله تقييد جواز الوصية بثلث المال منعا من إضرار الورثة لقول النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص فيما يرويه البخاري ومسلم : « الثُلُثُ والثُلُثُ كثيرٌ ، إنك أن تذر ورثتك أغنياء خيرٌ من أن تذرهم عالةً ، يتكففون الناس » ، أي فقراء يسألون الناس بأكفهم .

ومن أمثله : ترك الأراضي المفتوحة بيد أهلها على أن يدفعوا ضريبة الجزية والخراج ، توفيراً لمورد عام للخزينة ، ورعاية لمصلحة المسلمين العامة . ومنه تشريع الشفعة للشريك أو للجار دفعاً للضرر الذي قد يحدث من المشتري الجديد . ومنه إمرار الماء في أرض الغير لإرواء الأرض البعيدة عن مجرى الماء . ونحو ذلك من الأمثلة التي تصدر عن مبدأ واحد في الإسلام ، وهو أن مصدر

الحق : هو الله الذي لا يمنحه لأحد إلا لغرض حكيم هو تحقيق الخير للفرد وللمجتمع معاً .

## ٧ — الفقه صالح للبقاء والتطبيق الدائم :

إن فقه المباديء الخالدة لا يتغير كالتراضي في العقود ، وقمع الضرر ، وقمع الإجرام وحماية الحقوق ، والمسؤولية الشخصية ، أما الفقه المبني على القياس ومراعاة المصالح والأعراف ، فيقبل التغير والتطور بحسب الحاجات الزمنية ومصلحة البشرية ، والبيئات المختلفة زماناً ومكاناً ، مادام الحكم في نطاق مقاصد الشريعة وأصولها الصحيحة ، وذلك في دائرة المعاملات لا في العقائد والعبادات ، وهذا هو المراد بقاعدة « تتغير الأحكام بتغير الأزمان » .

## ٨ — إن الغاية من توطئة الفقه وتعميد طرق الوصول إليه هي :

الإفادة الكاملة منه على الصعيد الفردي ، وعلى الصعيد الرسمي بإستمداد القوانين في كل بلاد الإسلام منه ؛ لأن غايته خير الإنسان وإسعاده في الدارين ، أما غاية القوانين الحالية فهي مجرد استقرار المجتمع .

وقد اشتمل الفقه الإسلامي على فروع القوانين المختلفة كما يتّنا ، ويمكن معرفة حكم مشكلات العصر كالتأمين ونظام المصارف ونظام البورصات وقواعد النقل الجوي والبحري ونحوها بالقواعد الفقهية الكلية ، والإجتihad المستند إلى القياس والاستحسان والمصالح المرسلة وسد الذرائع والعرف وغيرها ، كما يمكن صياغة الفقه على أساس النظريات العامة كما هو الشأن في دراسة القوانين ، مثل نظرية الضمان ، ونظرية الضرورة ، ونظرية العقد ، ونظرية الملكية ، والمؤيدات الشرعية المدنية والجزائية ونظرية الحق ، ومجاوزة الحد في استعمال الحق ، والظروف الطارئة وغيرها ، وأجاز بعض الفقهاء خلافاً للأكثرية تخصيص النصوص بالعرف كعدم إلزام المرأة الشريفة القدر بإرضاع ولدها عند المالكية<sup>(١)</sup> ، ومثل أخذ أبي يوسف بالعرف في مقياس الأموال الربوية كيلاً أو وزناً

(١) والتحقيق أن هذا إن كان صحيحاً من باب تفسير النص الغامض بالعرف وليس من قبيل التخصيص .

لتحقيق المساواة وعدمها . فإذا تبدل عرف التعامل ، فأصبح بيع المال الربوي كالقمح والشعير وزنياً بعد أن كان كيلياً ، أو العكس ، عمل به ، وينظر حينئذ للتساوي وزناً أو كيلاً بحسب المتعارف بين الناس .

كما أجاز بعضهم تغير الحُكْم بتغير علته كإيقاف سهم المؤلفة قلوبهم <sup>(١)</sup> ، وأجاز آخرون تغير الحكم بالضرورة أو الحاجة دفعاً للخرج والضرر عن الناس بشرط توافر معنى الضرورة والحاجة شرعاً ، والترخيص بالقدر اللازم فقط لإزالة الضرورة وتحقيق الحاجة ، لأن « الضرورة تقدر بقدرها » والضرورة : هي التي تهدد المرء بهلاك نفسه أو نسله ، أو تلف ماله ، أو ذهاب عقله إذا لم يقدم على الشيء الممنوع . والحاجة : ما يترتب على عدم استعمال الشيء الممنوع حرج ومشقة تصيب الإنسان في نفسه أو ولده أو ماله أو عقله .

والعمل بالفقه واجب إلزامي ، لأن المجتهد يجب عليه أن يعمل بما أداه إليه إجهاده ، وهو بالنسبة إليه حكم الله تعالى . وعلى غير المجتهد أن يعمل بفتوى المجتهد ، إذ ليس أمامه طريق آخر لمعرفة الحكم الشرعي سوى الاستفتاء : ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ ( النحل : ٤٣ ) ، وإنكار حكم من أحكام الشريعة التي ثبتت بدليل قطعي ، أو زعم قسوة حكم ما كالحدود مثلاً أو ادعاء عدم صلاحية الشريعة للتطبيق يعتبر كفرًا وردة عن الإسلام . أما إنكار الأحكام الثابتة بالإجتihad المبني على غلبة الظن فهو معصية وفسق وظلم ؛ لأن المجتهد بذل أقصى جهده لمعرفة الحق وبيان حكم الله تعالى ، بعيداً عن أي هوى شخصي ، أو مأرب نفعي ، أو طلب سمعة أو شهرة زائفة ، وإنما مستنده الدليل الشرعي ورائده الحق ، وشعاره الأمانة والصدق والإخلاص .

وسبيل العودة الكاملة إلى العمل بالفقه : هو تقنيه أي صياغته في موادّ مسبّطة تيسيراً لرجوع القضاة إليه ، وتوحيداً لأحكام القضاة ، وتسهيلاً لأمر المتقاضين بمعرفة الحكم الذي يتقاضى على أساسه . ويتم هذا بواسطة لجنة من

(١) فتح القدير ١٤/٢ وما بعدها



علماء المذاهب لانتقاء الحكم من أي مذهب معتبر متبوع بحسب ما يرى من المصلحة ، ويكون عمل اللجنة جاداً متواصلاً ودؤوباً ، حتى إذا ما إنتهت من أعمالها أصدر الحاكم — وهو الركن الأساسي في هذا السبيل — أمراً باعتقاد القانون المستمد من الفقه ، تجاوباً مع تطلعات الناس بالرجوع إلى الشريعة وفقه القرآن والسنة ، وفي ذلك راحة للنفوس ، وطمأنينة للقلوب تزول بها تلك الازدواجية بين الدين والحياة والأنظمة السائدة .

## رصيد الأمة المحمدية من الإيمان

أما رصيد هذه الأمة من الإيمان فعظيم ونصيبها منه كبير وذلك لأنها تؤمن بكل كتاب أنزله الله وبكل رسول أرسله الله وبكل ملك خلقه الله بلا تفريق بين أحد . وهذا مصداق قول الله تعالى ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ .

وقد أمرنا بالإقرار بهذه الحقيقة الإيمانية الاعتقادية قولاً واعتقاداً في قوله سبحانه : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ .

فرصيدنا من الإيمان أكبر من غيرنا من الذين يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض . ولهذا المعنى كانت قيمة المسلم في الموازنة أعلى من قيمة غيره لأن التفاضل إنما هو بالإيمان . ومن هنا جاز للمسلم أن يتزوج بالكتابية ولم يجز للمسلمة أن تتزوج بغير المسلم لأنها أفضل منه بإيمانها . أما إيمانه فأنقص منها . وهناك معنى آخر في هذا الباب وهو أن المسلم إذا تزوج بالنصرانية أو باليهودية وذكرت نبيها فإنه يصلي ويسلم عليه مع الاحترام والتعظيم والتكريم ، بخلاف ما إذا تزوجت المسلمة بيهودي أو نصراني فإنها إذا ذكرت نبيها محمداً ﷺ فلا يبعد أن يسبه أو يشتمه زوجها أو على الأقل أن لا يرضى بذلك ولا يقع منه موقع الرضا والقبول .

## كمال يقين هذه الأمة

ومن شرف هذه الأمة أن الله تعالى وفر حظها من اليقين بشهادة المعصوم صلى الله عليه وآله إذ قال : « ما أُعْطِيَتْ أُمَّةٌ مِنَ اليقين أَفْضَلَ مِمَّا أُعْطِيَتْ أُمَّتِي » رواه الحكيم عن سعيد بن مسعود الكندي .

أي ما ملأ الله قلوب أمة نوراً شرح به صدورها لمعرفة تعالى ومجاهدة أنفسهم على سبيل الاستقامة عليها بحيث تصير الآخرة لهم كالمعينة أفضل مما أعطيت أمتي ولا مساويا لها فإن الأولين لم ينالوا ذلك إلا الواحد بعد الواحد وقد حبا الله سبحانه هذه الأمة بمزيد التأدب وقرب منازلهم غاية التقريب وسماهم في التوراة صفوة الرحمن وفي الإنجيل حلمااء علماء أبراراً أتقياء كأنهم من الفقه أنبياء . فالفضل الذي أعطيته هذه الأمة النور الذي به انكشف الغطاء عن قلوبهم حتى صارت الأمور لهم معينة ﴿ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ ﴾ قالوا : واليقين يتفاوت على ثلاث مراتب : علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين ، فعلم اليقين ما كان من طريق النظر والاستدلال . وعين اليقين أن يشاهد الغيوب كما يشاهد المرئيات مشاهدة عيان وحق اليقين هو المشاهدة مع شدة الالتصاق والامتزاج والذوق .

قال السرى السقطي : واليقين سكونك عند جولان الموارد في صدرك لتيقنك أن حزنك منها لا ينفعك ولا يردّ عنك مقضيا .  
وسنذكر في هذا الكتاب الخصائص العامة التي من الله بها على هذه الأمة .

## خصائص عامة للأمة المحمدية

أولاً - رفع الإصر :

وذلك بنص القرآن قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ .

والإصر أصله الثقل الذي يأصر صاحبه فلا يقدر على التحرك ومعنى ذلك أن الله تعالى لم يوجب على هذه الأمة أمة محمد ﷺ شيئاً فوق طاقتهم ولم يجعله من شرعهم كما كان ذلك على من قبلهم من الأمم .

وذلك كبنى إسرائيل مثلاً الذين كلفوا بجملة من الأعمال الصعبة والتكاليف الشاقة هي أشبه ما يكون بأطواق الحديد التي تحيط بالأعناق ( وهي الأغلال ) .

تلك الأغلال والأثقال كثيرة فمنها :

١ - قطع موضع النجاسة :

فإذا أصابت النجاسة ثوب أحدهم فإنه عليه أن يقطعه ليطهره ولا يكفي غسله كما أخرجه البخارى في صحيحه ( باب البول عند سبابة قوم كتاب الوضوء ) ، وقد زعم بعض العلماء أنه كان يجب قطع ما أصابته النجاسة ولو كان من الجسم اعتماداً على ظاهر رواية أبي داود وفيها : « كَانُوا إِذَا أَصَابَ الْبَوْلُ جَسَدَ أَحَدِهِمْ قَطَعُوا مَا أَصَابَهُ الْبَوْلُ مِنْهُمْ » . ( باب الإستبراء من البول ) .

ورواية مسلم وفيها : جلد أحدهم ، وأول القرطبي هذا بأن المراد بالجلد واحد الجلود التي كانوا يلبسونها ( قال الحافظ ) ورواية البخاري صريحة في الثياب فلعل بعضهم رواه بالمعنى ( كذا في الفتح ٣٣٠/١ ) أما هذه الأمة فإنه يكفى في شرعها في مثل ذلك إراقة الماء وغسل المحل فقط سواء كان ذلك مسجداً أو ثوباً أو بدنأ — كما فصلته كتب السنة .

## ٢ — عدم مؤاكلة الحائض :

وذلك أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يخالطوها ولم يساكنوها في بيت واحد بل يتركوها في البيت منفردة .

كما ثبت في الحديث الصحيح ( الذي رواه مسلم وأحمد ) ابن كثير . ٢٦٨ .

أما هذه الأمة فقد أبيع لها في دينها معاشرة الحائض في المأكل والمشرب والمضاجعة ونهت عن النكاح والاستمتاع بما بين السرة والركبة احتياطاً . « إصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ » ( رواه مسلم ) .

وهكذا راعى الإسلام بهذا الحكم ميول الإنسان وبشريته بجانب نورانيته وروحانيته فيربط بين حاجات الجسد العارضة وغاية الروح . وهذا المنهج الراقى في معاملة الإنسان هو الذي يتلاءم مع الفطرة كلها لأنه من صنع خالق هذه الفطرة .

## ٣ — تعيين القصاص في العمد والخطأ :

فقد كان متحتماً على بني إسرائيل القصاص حتى في الخطأ ولم تكن فيهم الدية في نفس أو جرح . كما جاء في الصحيح ( بخاري الديات باب من قتل له قتيل فهو بخير النظرين ٢٥/١٢ ) .

وهو معنى قوله تعالى : ( وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ) .

فخفف هذه الأمة بمشروعية الدية بدلاً عن القتل لمن عفا من الأولياء بقوله تعالى لهذه الأمة : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ ﴾ إلى قوله ﴿ فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أُخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ .

#### ٤ - قتل النفس بالتوبة :

وذلك أنهم لما عبدوا العجل بين لهم موسى عليه السلام طريق التوبة بعد العزم عليها وهو أن يقتل البريء منهم المجرم ﴿ فَتَوْبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ .

وذلك أيضاً هو طريق التوبة في جملة من المعاصي يكون بقطع الأعضاء الخاطئة كاللسان في الكذب والذكر في الزنا وفقاً العين في النظر للأجنبية ( المواهب ٥ / ٣٨١ ) .

أما الأمة المحمدية فإن الله سبحانه سهل لها طريق التوبة وأخبر أنه يقبلها ويعفو عن السيئات وأنه يفرح بها أشد من فرح الأم بولدها الرضيع الغائب عنها ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

#### ٥ - افتضاح أصحاب المعاصي منهم :

فقد كان بنو إسرائيل إذا أذنب أحدهم ذنباً أو فعل معصية فإنه إذا أصبح يجد مكتوباً على باب داره : فلان فعل كذا وكذا . وكفارتها كذا وكذا ويرى ذلك الخاص والعام ( الخصائص ٣ / ٢٠٤ ) .

أما الأمة المحمدية فإن الله تفضل عليها بالستر كما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال : « كُلُّ أُمَّتِي مُعَافَى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فَيَقُولُ يَا فَلَانُ عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ » متفق عليه .

## ٦ — المؤاخذة بحديث النفس مما لم تعمله الجوارح :

وذلك أن الله تعالى مابعث من نبي ولا أرسل من رسول أنزل عليه الكتاب إلا أخبره أنه سيحاسب عباده على ما فعلوه وما أخفوه في صدورهم فكانت الأمة تأتي على أنبيائها ورسولها ويقولون نؤاخذ بما نحدث به أنفسنا ولم تعمله جوارحنا فيكفرون ويقولون سمعنا وعصينا ولما قال المؤمنون من هذه الأمة سمعنا وأطعنا وأسلمنا وآمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله طمأنهم الله تعالى بأنه تجاوز عنهم حديث النفس إلا ما عملت الجوارح ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ — من خير — وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ — من شر﴾ .

## ٧ — المؤاخذة على الخطأ والنسيان :

وذلك بتعجيل عقوبته من تحريم شيء من مطعم أو مشرب عقوبة على حسب ذلك الذنب من كبر وصغر ( مواهب ٣٨٤ ) .

أما الأمة المحمدية فإن الله وضع عنها الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه كما ثبت في الحديث الذي رواه أحمد وابن حبان والحاكم وابن ماجه والطبراني والدارقطني بأسانيد جيدة وحسنه النووي ( مواهب ٣٨٤ ) ، ( الخصائص ٣ / ٢٠٢ ) .

## ٨ — تحريم إشتغالهم يوم عيدهم :

وهو يوم السبت — إذا أخذ عليهم العهد والميثاق بتعظيم يوم السبت والقيام بأمره وعدم إشتغالهم وعملهم فيه ولذلك لما خالفوا وتحيلوا على اصطيات الحيتان فيه قال الله لهم عقاباً : ﴿ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ ( البقرة ٦٥ — والأعراف ١٦٣ ) .

أما الأمة المحمدية : فإن الله تعالى رفع عنهم هذا الإصر ، فهم يتعاملون حتى في يوم عيدهم يوم الجمعة قبل النداء للصلاة وبعدها : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ

إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴿٩﴾ .

#### ٩ — الطاعون عذاب على الأمم السابقة :

وقد أخبرنا ﷺ أنه كان رجساً وعذاباً — أرسل على طائفة من بني إسرائيل وغيرهم أما هذه الأمة فإن الله جعله رحمة بهم وشهادة لهم ( كذا في الصحيح مواهب ٣٩١/٥ ) ( والخصائص ٢٢١/٣ ) .

#### ١٠ — تحريم بعض الطيبات من الأطعمة :

وهذا كان من العقوبات التي عاقب بها الله بني إسرائيل بسبب بغيتهم وظلمهم وتلاعبهم بشرائع الله وأشرتهم التي جعلتهم يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا — قال الله تعالى : ﴿ فَبُذِلُوا مِنَ الدِّينِ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدَّتْهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ ( النساء ١٦٠ ) .

وقد بين الله تعالى أنواع ما حرمه عليهم ، وهو :

( أ ) كل ذي ظفر أي مالميس بمنفرج الأصابع من البهائم والطيور كالإبل والنعام والأوز والبط فهي عليهم حرام .

( ب ) الشحم أي المادة الدهنية التي تكون في الحيوان فهو عليهم حرام في البقر والغنم وأباح لهم منها الشحوم المختلطة بالعظم وكذا ما تحويه البطن وكذا ما عليه بالظهر من الشحوم كما في آية الأنعام ( ابن كثير ٢٠٠/٢ ) .

أما الأمة المحمدية فإن الله تعالى أباح لها كل طيب ﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ ﴾ ﴿ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتُ ﴾ وحرم عليها كل خبيث ﴿ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ .

#### ١١ — تحريم الغنائم عليهم :

فكانوا إذا اغتنموا أشياء من أعدائهم لم يحل لهم أن يأخذوه ويتصرفوا فيه



بل يجمعونها وتنزل نار من السماء فتحرقه فيكون ذلك علامة قبول غزوتهم  
( مواهب ٣٦٤ كما قال الله تعالى : ﴿ حَتَّى يَأْتِيَنا بِقُرْبانٍ نَأْكُلُهُ النار ﴾ .

أما الأمة المحمدية فإن الله لشرف نبيها عنده أحل لهم الغنائم كما ثبت في  
الحديث الصحيح المتفق عليه وجعلها حلالاً مباركاً ﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً  
طَيِّباً ﴾ .

## ١٢ - تحريم الصلاة عليهم إلا في مواضع مخصوصة :

وذلك أن من مضى من الأمم كانوا لا يصلون إلا في أماكن مخصوصة كالبيع  
والصوامع والكنائس فمن غاب منهم عن موضع صلاته لم يجز له أن يصلي في غيره  
من بقاع الأرض حتى يعود إليه ثم يقضى كل ما فاتته ( فتح ٤٣٦/١ ) .

وعند البزار من حديث ابن عباس : « ولم يكن أحد من الأنبياء يصلي حتى  
يبلغ محرابه » ، ( فتح ٤٣٨/١ ) .

أما الأمة المحمدية : فإن الله جعل لها الأرض مسجداً أي موضع صلاة  
لا تخصص الصلاة منها بموضع دون غيره كما ثبت في الصحيح « البخاري التيمم  
أوله » .

## ١٣ - تخصيص الطهارة بالماء :

وذلك أن من مضى من الأمم كان في شرائعهم وجوب الإقتصار على الماء  
في الطهارة وعدم جواز الإكتفاء بغيره فإذا عدم أحدهم الماء لم يصل حتى يجده ثم  
يقضي ما فاتته .

أما الأمة المحمدية : فإن الله تعالى جعل لها الأرض طهوراً فأبى رجل أتى  
الصلاة ولم يجد ماء وجد الأرض طهوراً كما ثبت في الصحيح ( فتح ٤٣٨/١ )  
( ومواهب ٢٦٤/٥ ) .

## ثانياً — الإكرام بالرحمة الخاصة :

ومن خصائص هذه الأمة : إكرامهم في الآخرة بالرحمة الخاصة وذلك بنص القرآن الكريم .

فقد وصف القرآن الكريم هذه الأمة المحمدية بأنه جعل السابق منهم سابقاً والمقتصد لاحقاً والظالم لنفسه مغفوراً له . قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ، جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ، وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ، الَّذِي أَهْلَنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ .

ومعنى هذا أن الحق سبحانه وتعالى قسم هذه الأمة إلى ثلاثة أنواع :

الأول : أشار إليه بقوله فمنهم ظالم لنفسه وهو المفرط في فعل بعض الواجبات المرتكب لبعض المنهيات وهو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً .

الثاني : أشار إليه بقوله فمنهم مقتصد وهو المؤدي للواجبات التارك للمحرمات وقد يترك بعض المستحبات ويفعل بعض المكروهات .

الثالث : أشار إليه بقوله ومنهم سابق بالخيرات وهو الفاعل للواجبات التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات .

قال ابن عباس رضي الله عنه : « السَّابِقُ بِالْخَيْرَاتِ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَالْمُقْتَصِدُ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَالظَّالِمُ لِنَفْسِهِ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِشَفَاعَةِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ » ، وكذا روي عن غير واحد من السلف وجاء ما يؤيده في السنة بطرق جيدة ثابتة فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد بسنده عن أبي الدرداء قال سمعت رسول الله ﷺ يقول قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ﴾ .

الله ﷻ ، فأما الذين سبقوا فأولئك يدخلون الجنة بغير حساب وأما الذين اقتصدوا فأولئك الذين يحاسبون حساباً يسيراً ، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يجسسون في طول المحشر ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته فهم الذين يقولون بعد ذلك ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ صدق الله العظيم .

قلت<sup>(١)</sup> هو المناسب لسياق الآية الشريفة وحال الظالم لنفسه . فإنه إذا خبس في المحشر لنقصان حاله عن السابق والمقتصد أصابه حينئذ الهم والحزن والغم فإذا تداركه الله برحمته ودخل الجنة تذكر ما كان فيه فقال الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن لأن الله تعالى بعد أن ذكر الأصناف الثلاثة وذكر أنهم يدخلون الجنة ذكر بعد ذلك أنهم يقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن . ولا يتصور أن يصيب السابق أو المقتصد حزن لأنهم لا يحزنهم الفرع الأكبر فبقي الصنف الثالث وهو الظالم لنفسه ، ولهذا كانت هذه الأمة أمة مرحومة ، كما قال محمد بن الحنفية رضي الله عنه : ( إنها أمة مرحومة الظالم مغفور له والمقتصد في الجنات والسابق في الدرجات ) . رواه الثوري وغيره ، وهذا كله من محض فضل الله سبحانه وتعالى الذي شمل الأنواع الثلاثة إذ كلهم انتهى إلى الجنة وإلى النعيم على تفاوت في الدرجات وهو يشهد بكرامة هذه الأمة على الله وهذه الكرامة ليست رخيصة أو سهلة لأن الله سبحانه أخبر قبل ذلك أنه اصطفى هذه الأمة لوراثته الكتاب والقيام به فقال : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا ﴾ فجعل في مقابلة هذه الكرامة الأخروية العظمى التبعة الكبرى والمسئولية الناشئة عن هذا الاصطفاء وعن تلك الوراثة وهي تبعة ضخمة ذات تكاليف وإلزامات .

فهو إذن إكرام بالفضل في الجزاء حتى لمن أساء وتقليد بأمانة الوراثة للكتاب واصطفاء .

(١) القائل هو سيدى محمد علوى المالكى حفظه الله ونفعنا به .

### ثالثاً — جعلهم أمة وسطا :

ومن خصائص هذه الأمة : أنهم هم الأمة الوسط ، وأنهم هم الشهداء على الناس : بنص القرآن ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۝ ﴾ .

وقد جاء ذكر هذه المنقبة والخصوصية في أثناء الكلام عن القبلة كما قال تعالى : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ثم قال بعدها ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ۝ ﴾ الآية .

وحاصل الأمر أنه قد كان ﷺ يستقبل في المدينة المنورة بيت المقدس وكان يكثر الدعاء والابتهاال أن يوجه إلى الكعبة التي هي قبله إبراهيم عليه السلام فأجيب إلى ذلك وأمر بالتوجه إلى البيت العتيق ولما وقع هذا التحويل حصل لبعض الناس من أهل النفاق والريب والكفرة من اليهود ارتياب وزيف عن الهدى وتخبط وشك وقالوا : ﴿ ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ﴾ فأنزل الله جوابهم في قوله : ﴿ قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

ثم بين لهم أنه كما أنعم عليهم بالهداية إلى الصراط المستقيم كذلك أنعم عليهم بأن جعلهم أمة وسطا والوسط أيضاً هو الخط المستقيم والطريق المستوى وهذا ما تقتضيه الحكمة من كونه سبحانه هداهم إلى الصراط المستقيم وجعلهم أمة ( وسطا ) أي على صراط مستقيم أي عدولاً خياراً لأن الوسط حقيقة في البعد عن الطرفين ولاشك أن طرفي الإفراط والتفريط رديان ، فالمتوسط في الأخلاق يكون بعيداً عن الطرفين فكان معتدلاً فاضلاً .

وهكذا يحدثنا القرآن عن حقيقة هذه الأمة في الكون وعن وظيفتها في هذه الأرض وعن مكانها العظيم في هذه البشرية وعن دورها الأساسي في حياة الناس مما

يقتضى أن تكون لها قبلتها الخاصة وشخصيتها الخاصة وذاتيتها المستقلة . إنها الأمة الوسط التي تشهد على الناس جميعاً في الدنيا والآخرة .

فأما في الدنيا فإنها سمعت أخبار كل الأمم السابقة في كتابها الأكبر الذي هو القرآن أو عن نبيها المصطفى ﷺ فيما جاء عنه فتسمع من أخبار العصاة والمطيعين والمصدقين والمكذبين وجزاء كل وتسمع أخبار الأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين وأعمالهم وجهادهم وتضحيتهم وما لاقوا من عنت وتعب ومشقة ثم تبدي رأيها فيهم وتزن قيمتهم وتصوراتهم وتقاليدهم وشعاراتهم فتفصل في أمرها وتقول : هذا حق منها وهذا باطل .

وأما في الآخرة فإنه إذا كان يوم القيامة ووقف الناس للسؤال يقال لكل أمة : هل بلغكم رسولكم فيقولون لا فيقال للرسول الذي أرسل إليهم : هل بلغت قومك ؟ فيقول : نعم فيقال من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته فيدعى محمد وأمته فيقال لهم : هل بلغ هذا قومه ؟ فيقولون : نعم فيقال لهم وما أدراكم ؟ فيقولون : جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا فذلك قوله : ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ﴾ .

#### رابعاً — يسر الشريعة المحمدية :

ومن خصائص هذه الأمة .. أن شريعتها أيسر الشرائع — وذلك بنص القرآن .

فما من فريضة من الفرائض إلا ويسرها الله سبحانه وتعالى بفتح باب الرخصة والعذر فيها ، فخذ مثلاً الصلاة وهي أهم وأعظم الفرائض بل هي عماد الدين وأساسه المتين . فإنها مع ذلك ، جعل الله تعالى لها أحكاماً خاصة تختلف عن الحكم الأصلي لها . مراعاة لظروف خاصة في أحوال خاصة كالمرض والسفر والحرب وفي حالة عدم وجود اللباس الساتر أو عدم معرفة القبلة أو نسيانها أو النوم عنها .

وهذا التيسير هو الصفة العامة لهذه الشريعة المطهرة قال تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ .

وقال ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ رَضِيَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ الْيُسْرَ وَكَرِهَ لَهَا الْعُسْرَ » . ( رواه الطبراني برجال الصحيح ) .

وروى أحمد في مسنده عن حذيفة قال : ( سجد ﷺ فلم يرفع رأسه حتى ظننا أن نفسه قبضت فلما فرغ قال : « رَبِّي اسْتَشَارَنِي » ( الحديث ) ، وفيه : « وَأَحَلَّ لَنَا كَثِيرًا مِمَّا شَدَّدَ عَلَيَّ مِنْ قَبْلُنَا وَلَمْ يَجْعَلْ عَلَيْنَا فِي الدُّنْيَا مِنْ حَرَجٍ فَلَمْ أَجِدْ شُكْرًا إِلَّا هَذِهِ السَّجْدَةَ » ( مواهب ٣٨٢ ) .

وكان ﷺ يفتخر بهذه النعمة تحدثاً بنعمة الله ويقول : « إِنِّي بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ » . ( رواه أحمد بسند حسن ) ( كشف الخفاء ٢١٧ ) .

ويوصي بذلك بعوثة ورسله فيقول لهم : « بَشِّرُوا وَلَا تُنْفِرُوا وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا » . ( رواه أحمد والشيخان ) .

وهذه هي القاعدة الكبرى في تكاليف هذه العقيدة كلها فهي ميسرة ولا عسر فيها وهي توحى للقلب الذي يتذوقها بالسهولة واليسر في أخذ الحياة كلها وتطبع نفس المسلم بطابع خاص من السماحة التي لا تكلف فيها ولا تعقيد مما كان على من قبلهم من الأمم .

خامساً — كمال الشريعة المحمدية :

ومن خصائص هذه الأمة .. أن شريعتها أكمل الشرائع — وذلك بنص القرآن .

قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ .

وهذا إعلان صريح من الحق سبحانه وتعالى بإكمال العقيدة وإكمال الشريعة فلا نقص يستدعي الكمال ولا قصور يستدعي الإضافة ولا محلية أو زمانية

تستدعي التطوير أو التحوير وهذا الكمال هو من حتميات العمومية المكانية والزمانية في هذه الرسالة وذلك لأن كل رسول قبل خاتم النبيين إنما أرسل لقومه في عصره فهي رسالة خاصة لمجموعة خاصة في بيئة خاصة في زمن محدود ، فكانت أحكامها وشرائعها متكيفة ومحكومة بتلك المقتضيات والظروف لتناسب حالة الجماعة وحالة البيئة وحالة الزمان .

لكن لما كان ( النبي ﷺ ) سيدنا محمد أرسل لكافة الناس فهي رسالة الإنسان في كل زمان وفي كل مكان التي تخاطب فطرته التي لا تتبدل ولا تتحور ولا ينالها التغيير ( فطرة الله تعالى التي فطر الناس عليها ) فصل في هذه الرسالة شريعة تتناول حياة الإنسان من جميع أطرافها وفي كل جوانب نشاطها وتضع لها المبادئ الكلية والقواعد الأساسية فيما يتطور فيها ويتحور بتغير الزمان والمكان وجعلها محتوية على كل ما تحتاج إليه حياة الإنسان من ضوابط وتوجيهات وتشريعات وتنظيمات لكي تستمر وتنمو وتتطور وتجدد حول هذا المحور وداخل هذا الإطار .

سادساً — نورهم يسعى بين أيديهم :

ومن خصائص هذه الأمة .. أن نورهم يسعى بين أيديهم يوم القيامة بنص القرآن .

قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ أي إلى الجنة .

وقد وضحت السنة المشرفة هذه الخصوصية كما ثبت في الحديث أن النبي ﷺ قال : « إِنِّي لَا أَعْرِفُ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ بَيْنِ الْأُمَمِ أَعْرِفُهُمْ يُؤْتُونَ كُتُبَهُمْ بِأَيْمَانِهِمْ وَأَعْرِفُهُمْ بِسِيَمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ وَأَعْرِفُهُمْ بِنُورِهِمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ » ، ( رواه أحمد بإسناد صحيح ) .

## سابعاً — كونهم خير أمة :

من خصائص هذه الأمة الخيرية بنص القرآن .

قال تعالى ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ وبنص السنة كما قال ﷺ : « أَنْتُمْ تُؤْفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ » ، ( رواه أحمد وحسنه وابن ماجه ) ، وقال ﷺ أيضاً : « أُعْطِيتُ مَا لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ، فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هُوَ ؟ قَالَ : نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ وَأُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْأَرْضِ وَسُمِّيتُ أَحْمَدَ وَجُعِلَ التُّرَابُ لِي طَهُورًا وَجُعِلَتْ أُمَّتِي خَيْرَ الْأُمَمِ » . ( رواه أحمد وإسناده حسن ) ، ثم ذكر الحق سبحانه وتعالى من أوصافهم الحمودة إقامة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين الخاص والعام فقال تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وهذا أيضاً بمثابة الشرط الذي يؤهل للاتصاف بتلك الخيرية كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خطبة له في الحج وقد قرأ هذه الآية ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ قال : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ فَلْيُؤَدِّ شَرْطَ اللَّهِ فِيهَا » .

وهذه المنقبة الجليلة أشار إليها ﷺ في الحديث المشهور : « لَا تَرَأَى طَائِفَةً مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ » ، فهو بيان إبقاء هذه الشعيرة في الأمة المحمدية ولو على صورة ضيقة .

وهذه بخلاف أهل الكتاب فإنهم أهملوا هذه الشعيرة وتناسوها بمجاملة ورياء أو نفاقاً واستبدالاً للذي هو أدنى بالذي هو خير ولذلك ذمهم الله تعالى في كتابه العزيز فقال : ﴿ لَعْنُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ، كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ .

فَظَهَرَ أَنَّهُمْ بَتَرَكَهُمْ هَذِهِ الشَّعِيرَةُ اسْتَحَقُّوا اللَّعْنَةَ مِنَ النَّبِيِّ دَاوُدَ وَعِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وَسَمِيَ فَعَلُهُمْ مَعْصِيَةً وَعَدَوَانًا وَهُوَ بَيْسُ الْفَعْلِ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ .



وتتضح صورة هذه الخيرية الإلهية في الأمة المحمدية في جلاله أكثر وعظمة أكبر عند ذكر ما يقابلها بالنسبة لغير هذه الأمة كاليهودية مثلاً ، فإن الله تعالى لما امتدح الأمة المحمدية بأنها خير أمة أخرجت للناس ووصفها بأوصاف كريمة هيأتهم لهذه الخيرية ذم اليهود بأقبح الصفات وتوعدهم بسوء المصير وضرب الذلة عليهم والمسكنة لكفرهم بآياته سبحانه وقتلهم لأبنائهم وتعديهم حدوده فقال كنتم خير أمة أخرجت للناس الآيات الثلاث . وبجانب هذه الخصوصية الجليلة التي دلت عليها هذه الآيات المباركات فإنها تحمل هذه الأمة بشارة صادقة — صدق القرآن — بأن هذه الكثرة من أعداءهم لن يضروهم ضرراً بليغاً ﴿ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ﴾ ، أي لن يضروكم إلا ضرراً يسيراً كأن يؤذوكم بالسنتهم ويلقوا الشبه بينكم ليصدوا من ضعف إيمانه عن الحق وهو الأذى من قوله ﴿ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ﴾ وهذا الضرر في الواقع لا يؤدي إلى هدم كيان الأمة ولا يؤدي إلى اضمحلال قوتها فهو ضمان حق ووعد صدق من الحق سبحانه وتعالى أكدته بعده بوعد ثان وهو أن أهل الكتاب لو قاتلوا المؤمنين الصادقين فإن المؤمنين سيكون لهم النصر عليهم فقال : ﴿ وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلُوكُمْ الْأَذْبَارَ ﴾ .

ثم ختم هذا بوعد ثالث وهو أنهم بعد نصرهم عليهم لن تكون لأهل الكتاب وعلى رأسهم اليهود قوة أو شوكة للأخذ بثأرهم بعد ذلك ﴿ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴾ . إلا أن هذه الضمانات العظيمة التي هي بشارات كريمة — مشروطة بمحافظه الأمة الإسلامية على أصلين عظيمين أشارت إليهما الآية الأولى : الإيمان بالله ﴿ تَوَمِّنُونَ بِاللَّهِ ﴾ . الثاني : الدعوة إلى الخير ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ ، فإذا أرادت الأمة المحمدية أن لاتصاب من جهة اليهود بما يأتي على كيانها فعليها بإخلاص العبادة لربها والعمل بسنة نبيها والتقيد بأحكام كتابها وإعداد العدة الكاملة لقتال عدو الله وعدو رسول الله وعدوها فإذا لم تلتزم بذلك أصابها الضرر من جهة أعدائها وأثر في كيانها ومكن عدوها منها .

إن وعد الله تعالى لا يختلف ولن يختلف وقد حققه سبحانه لأسلافنا الصالحين الذين آمنوا بالله حقاً وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولكن المسلمين

هم الذين تغيرت أحوالهم فقد فرطوا في دينهم وأضاعوا الصلاة وأكلوا الربا وانغمسوا في الشهوات واتبعوا خطوات الشيطان وتفرقوا شيعاً وأحزاباً ، وتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولم يكونوا أشداء على الكفار رحماء بينهم ولم يعدوا ما استطاعوا من قوة لقتال عدوهم كما كان أسلافهم من قبل ولم يحسنوا الشعور بالمسئولية كما تريدها تعاليم الإسلام .

أكثر حكامهم يحكمون بغير ما أنزل الله وبغير سنة رسول الله ﷺ وأكثر علمائهم غلب عليهم الحرص على الدنيا فنافقوا وجاملوا أو سكتوا فتسلط عليهم الحكام فلا كلمة حق تقال ولا حدود تقام ولا ضرب على أيدي الفساد والمخرين ولا غيرة على الحرمات أو المقدسات .

فلما فعلوا ذلك تبدل حالهم من الخير إلى الشر وسلط الله عليهم من لا يخافهم ولا يرحمهم لأنه سبحانه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . ولئن عادوا إلى المنهج الحق يعود إليهم كل ما فقدوه ولئن صدقوا الله يصدقهم ولئن نصره ينصرهم ولئن وفوا بعهد أمانة ما ورثهم يحقق لهم ما وعدهم . ومن أصدق من الله قيلاً .

وإن العرب في حربهم اليوم مع أعداء أنبيائه وملائكته وكتبه لما تذكر معظمهم ربهم فرجعوا إليه ذاكرين داعين مصلين خائفين راجين معترفين بأن النصر منه ثبتهم الله بقدر رجعتهم تلك مع ما هم عليه في مجتمعاتهم من مخالفة لله ومحاربة لأحكامه ومجاهرة بمعاصيه .

أقول إن العرب — مع ما هم عليه — لما تذكروا الله سبحانه وتعالى والمجرد تذكرهم فقد تحقق لهم خير كثير ونصر كبير واندفع عنهم عار خطير ووقفت معهم الدنيا محاربة ومناصرة ومؤيدة إما بالفعل أو القول .

وإن الأمل يملأ القلوب في أن يتم البعث الإيماني الإسلامي فيربط الحاضر بالماضي ويروي حديث المجد العزيز المشهور متصلاً مسنداً مرفوعاً .

## ثامناً — كون المسيح عيسى من أفراد هذه الأمة :

أن من أفراد هذه الأمة نبياً عظيماً من أولى العزم وهو المسيح عيسى عليه السلام فإنه حين ينزل يكون من هذه الأمة اتفاقاً مع بقائه على نبوته بل ذهب جمع من العلماء إلى أنه صحابي لاجتماعه بالنبي ﷺ وهو حي مؤمناً به ومصدقاً .

وإذا نزل فإنما يحكم بشريعة نبياً ﷺ فهو تابع لنا نبينا ﷺ ولذلك فإنه يصلي مأموماً مع جماعة المسلمين كما جاء في الحديث في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا نَزَلَ ابْنُ مَرْيَمَ فِيكُمْ وَإِمَامُكُمْ مِنْكُمْ » . في صحيح مسلم : « كَيْفَ بِكُمْ إِذَا نَزَلَ ابْنُ مَرْيَمَ فَيَقَالَ صَلِّ بِنَا فَيَقُولَ لَا إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أَمْرَاءُ تُكْرِمُهُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ » . وفي مسند أحمد : « فَإِذَا بَعِيسَى فَيَقَالَ تَقَدَّمْ فَيَقُولَ لِيَتَقَدَّمْ إِمَامُكُمْ فَلْيَصَلِّ بِكُمْ » .

وفي سنن ابن ماجه : « إن عيسى يقول للإمام صَلِّ فَإِنَّهَا أُقِيمَتْ لَكَ » . والحاصل أن الأخبار تواترت بأن عيسى يصلي مأموماً يوم ينزل خليفة في الأمة المحمدية وهو وإن كان واحداً من أفرادها ومن أتباع نبينا محمد ﷺ إلا أنه رسول ونبي كريم لا كما يظن بعض الناس أنه يأتي واحداً من هذه الأمة بدون نبوة ورسالة ويجهل أنهما لا يزولان بالموت فكيف بمن هو حي وقد جاء في الصحيحين : « لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزَلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلُ الْخَنَزِيرَ وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ » ، ويزيد هذا المعنى وضوحاً حديث عبد الله بن مغفل : « يَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا بِمُحَمَّدٍ عَلَى مِلَّةِهِ » ( رواه الطبراني ) ( ونقله الزرقاني ٣٤٩/٥ ) .

وليس في الرسل من يتبعه رسول عامل بشريعته تارك للشرع الذي أوحى إليه به إلا نبينا ﷺ لأنه نبي الأنبياء .

## تاسعاً — ثبوت البشارة بالجنة لآخر هذه الأمة كما ثبت لأولها :

جاء في الحديث عن أبي أمامة الباهلي أنه ﷺ قال : « طُوبَى لِمَنْ رَأَىي وَآمَنَ بِي وَطُوبَى سَبْعَ مَرَّاتٍ لِمَنْ لَمْ يَرِنِي وَآمَنَ بِي » . أخرجه أحمد والبخاري

في التاريخ وابن حبان والحاكم بلفظ : « طُوبَى لِمَنْ رَأَى وَآمَنَ بِي مَرَّةً وَطُوبَى لِمَنْ لَمْ يَرِنِي وَآمَنَ بِي سَبْعَ مَرَّاتٍ » . وصححه الحاكم وتعقب لكن له شاهد من حديث أنس عند أحمد وروى الطيالسي وعبد بن حميد عن ابن عمر قال سئل رسول الله ﷺ فقيل : ( أَرَأَيْتَ مَنْ آمَنَ بِكَ وَلَمْ يَرْكَ وَصَدَّقَكَ وَلَمْ يَرْكَ ) ، قال : « أَوْلَئِكَ إِخْوَانِي ، أَوْلَئِكَ مَعِيَ طُوبَى لِمَنْ رَأَى وَآمَنَ بِي طُوبَى لِمَنْ آمَنَ بِي وَلَمْ يَرِنِي ثَلَاثَ مَرَّاتٍ » .

وروى الطبراني برجال ثقات والحاكم عن عبد الله بن بسر مرفوعاً « طُوبَى لِمَنْ رَأَى وَآمَنَ بِي وَطُوبَى لِمَنْ رَأَى مَنْ رَأَى وَطُوبَى لِمَنْ رَأَى مَنْ رَأَى طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَا بٍ » .

وجاء في حديث أخرجه أحمد وابن حبان زيادة وهي أنه سُئِلَ ﷺ وَمَا طُوبَى فَقَالَ : « شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ » .

عاشراً — ثبوت الفضل لآخر هذه الأمة كما ثبت لأولها :

ثبت بالإتفاق أفضلية عصره ﷺ ويدل على ذلك ما جاء في الصحيحين وغيرهما : « خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ » .

قال العلماء المقصود بذلك عصر الصحابة ومدتهم من البعثة مائة وعشرون سنة أو دونها بقليل أو فوقها بقليل على الخلاف في وفاة آخر الصحابة موتاً أوى الطفيل .

وقوله : « ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ » أي القرن الذين بعدهم وهم التابعون ومدتهم نحو سبعين أو ثمانين سنة ان اعتبر من سنة مائة وقوله : « ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ » وهم أتباع التابعين نحواً من خمسين إلى حدود عشرين ومائتين وهذا يدل على أن أول هذه الأمة أفضل من كل من يأتي بعده وذهب أبو عمر بن عبد البر أنه قد يكون فيمن يأتي بعد الصحابة أفضل ممن كان في جملة الصحابة .

جاء عن عمر بن الخطاب قال : كنت جالساً عند رسول الله ﷺ فقال :

« أَتَذَرُونَ أَيُّ الْخَلْقِ أَفْضَلُ إِيمَانًا » قُلْنَا الْمَلَائِكَةُ ، قال : « وَحَقَّ لَهُمْ بَلْ غَيْرُهُمْ »  
قُلْنَا : الْأَنْبِيَاءُ ، قال : « وَحَقَّ لَهُمْ بَلْ غَيْرُهُمْ » .

قال ﷺ : « أَفْضَلُ الْخَلْقِ إِيمَانًا قَوْمٌ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ يُؤْمِنُونَ بِي وَلَمْ  
يَرَوْني فَهُمْ أَفْضَلُ الْخَلْقِ إِيمَانًا » . ( رواه الطبراني بإسناد حسن وأبو داود  
الطيالسي وحسنه ابن عبد البر ) .

وأيضاً جاء في الحديث عن أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قال :  
يا رسول الله : هَلْ أَحَدٌ خَيْرٌ مِنَّا أَسْلَمْنَا مَعَكَ وَجَاهَدْنَا مَعَكَ قال : « قَوْمٌ  
يَكُونُونَ مِنْ بَعْدِكُمْ يُؤْمِنُونَ بِي وَلَمْ يَرَوْني » . ( رواه أحمد والطبراني وصححه  
الحاكم ) .

ونحن لانحب أن نتعرض إلى الخلاف الجاري بين العلماء في قضية التسوية  
بين أول هذه الأمة وآخرها في فضل الأعمال غير أن ذلك لا يمنعنا من القول بأن  
مشاهدة رسول الله ﷺ ورؤيته لا يعدلها شيء .

#### الحادي عشر — وجود قبر نبينا ﷺ بالتعيين :

ومن فضل الله الذي شرف به هذه الأمة فامتازت به على من سواها من  
الأمم هو أن قبر نبينا وسيدنا محمد ﷺ معلوم عندنا بيقين وتواتر لاشك في ذلك  
ولاريب فترد الناس في كل وقت وحين وتتكبد مشاق السفر وعناءه إلى قبره  
الشريف مع امتلاء قلوبهم بالعلم التام واليقين الكامل على أنه ﷺ في هذا المكان  
المشهود وهذه حجراته المعروفة ومساكن زوجاته وهذه روضته المطهرة .

هذا الشرف والفضل لم يثبت لنبي غيره ﷺ ولا لأمة غير الأمة المحمدية .

وفي هذا يقول ابن حجر :

ولم تعلم مقابرهم بأرض يقينا غير ماسكن الرسول

وقال الإمام مالك رضي الله عنه للمهدي : يا أمير المؤمنين إنك تدخل الآن

المدينة فتمر بقوم عن يمينك ويسارك وهم أولاد المهاجرين فسلم عليهم فإنه ما على

وجه الأرض قوم خير من أهل المدينة ولاخير من المدينة فقال له : ومن أين ؟ قلت ذلك يا أبا عبد الله ، قال : لأنه لايعرف قبر نبي اليوم على وجه الأرض غير قبر محمد ﷺ ومن قبر محمد عندهم فينبغي أن يعلم فضلهم على غيرهم . ( كذا في المدارك ) .

فالقبر الشريف موضع تنزل الرحمة الإلهية كما جاء في الحديث عن كعب رضي الله عنه : « مَا مِنْ فَجْرٍ يَطْلُعُ إِلَّا وَيَنْزِلُ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ حَتَّى يَحْفُوا بِالْقَبْرِ يَضْرِبُونَ بِأَجْنِحَتِهِمْ وَيُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ حَتَّى إِذَا أُمْسُوا عَرَجُوا وَهَبَطَ سَبْعُونَ أَلْفًا حَتَّى يَحْفُوا بِالْقَبْرِ يَضْرِبُونَ بِأَجْنِحَتِهِمْ فَيُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ سَبْعُونَ أَلْفًا بِاللَّيْلِ وَسَبْعُونَ أَلْفًا بِالنَّهَارِ » . رواه الحافظ إسماعيل القاضي في جزء الصلاة على النبي ﷺ .

الثاني عشر — ذكر الأمة المحمدية في الكتب السابقة :

قال الله تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَتَذَكَّرُونَ فَضَلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ الآية .

وأخرج الدارمي في مسنده وابن عساكر عن كعب قال في السطر الأول محمد رسول الله عبيد المختار لافظ ولاغليظ ولاسخاب في الأسواق ولايجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح ويغفر ، مولده بمكة وهجرته بطيبة وملكه بالشام . وفي الثاني محمد رسول الله أمته الحمادون يحمدون الله في السراء والضراء يحمدون الله في كل منزل ويكبرونه على كل شرف رعاة الشمس يصلون الصلاة إذا جاء وقتها ولو كانوا على رأس كناسة ويأتزرون على أوساطهم ويوضئون أطرافهم وأصواتهم بالليل في جو السماء كأصوات النحل .

وفي رواية أخرى عند الدارمي وابن سعد وابن عساكر زيادة وهي :

« يصفون في صلاتهم كما يصفون في قتالهم ، ذويهم في مساجدهم كدوي النحل  
يسمع مناديتهم في جو السماء » .

وفي رواية عند الزبير بن بكار وأبي نعيم زيادة : « أناجيلهم في صدورهم  
قربانهم الذي يتقربون به إلى دماءهم رهبان بالليل ليوث بالنهار » .

وفي رواية عن أبي هريرة عند أبي نعيم جاء في أوصافهم هذه الأمة في  
التوراة أنهم الآخرون السابقون المستجيون المستجاب لهم . أناجيلهم في  
صدورهم يقرؤونه ظاهراً ، يأكلون الفئء يجعلون الصدقة في بطونهم يؤجرون  
عليها ، إذا هم أحدهم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة واحدة وإن عملها كتبت  
له عشر حسنات ، وإذا هم أحدهم بسيئة فلم يعملها لم تكتب وإن عملها كتبت  
سيئة واحدة ، يؤتون العلم الأول والآخر فيقتلون قرون الضلالة والمسيح  
الذجال .

وفي رواية عن كعب الأحبار عند أبي نعيم أيضاً جاء في وصف هذه الأمة  
أنها خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون  
بالكتاب الأول والآخر . إذا أرادوا أمراً قالوا : نفعله إن شاء الله ، الصعيد لهم  
طهور والأرض لهم مسجد غرّ محجلون من آثار الوضوء أمة مرحومة ضعفاء  
يؤتون الكتاب اصطفتيتهم فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق للخيرات  
لا يدخل النار منهم إلا من برىء من الحسنات مثل ما برىء الحجر من ورق  
الشجر ، وفي رواية عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن كعب أخرجها  
أبو نعيم أيضاً وفيها إذا غزوا في سبيل الله كانت الملائكة بين أيديهم ومن خلفهم  
برماح شداد وإن حضروا الصف في سبيل الله كان الله عليهم مظلاً .

وفي رواية عن أنس مرفوعاً أخرجها أبو نعيم في الحلية وفيها : « إن الجنة  
محرمة على جميع الخلق حتى يدخلها ( أي محمد ﷺ ) وأمه صائمون بالنهار  
رهبان بالليل أقبل منهم اليسير وأدخلهم الجنة بشهادة أن لا إله إلا الله » .

وفي رواية عن وهب بن منبه أخرجها ابن أبي حاتم وأبو نعيم جاء في

وصف الأمة المحمدية ما يأتي أن الله جل جلاله قال : « أَلْهَمَهُمُ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ وَالتَّكْبِيرَ وَالتَّوْحِيدَ فِي مَسَاجِدِهِمْ وَمَجَالِسِهِمْ وَمُضَاجِعِهِمْ وَمَتَقَلَّبِهِمْ وَمُتَوَاهِمِهِمْ أَوْلِيَائِي وَأَنْصَارِي أَنْتَقِمَ بِهِمْ مِنْ أَعْدَائِي عَبْدَةَ الْأَوْثَانِ يَصْلُونَ لِي قِيَاماً وَقَعُوداً وَرُكْعاً وَسُجُوداً وَيَخْرُجُونَ مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي أَلُوفاً وَيَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِي صَفُوفاً وَزُحُوفاً ثُمَّ قَالَ أَجْعَلُهُمْ أَفْضَلَ الْأُمَمِ وَأَجْعَلُهُمْ أُمَّةً وَسْطاً شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، إِذَا غَضِبُوا هَلَلُونِي وَإِذَا قَبِضُوا كَبَّرُونِي وَإِذَا تَنَازَعُوا سَبَّحُونِي ، يَطْهَرُونَ الْوُجُوهَ وَالْأَطْرَافَ وَيَشْدُونَ الثِّيَابَ إِلَى الْأَنْصَافِ وَيَهْلِلُونَ عَلَى التَّلَالِ وَالْأَشْرَافِ » .

وروى البيهقي عن وهب بن منبه وفيه أن الله سبحانه وتعالى قال : أُمَّتُهُ ( يَعْنِي مُحَمَّدًا ﷺ ) مَرْحُومَةٌ أُعْطِيَتْهُمْ مِنْ نَوَافِلِ مِثْلِ مَا أُعْطِيَ الْأَنْبِيَاءُ وَافْتَرَضْتُ عَلَيْهِمُ الْفَرَائِضَ الَّتِي افْتَرَضْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ حَتَّى يَأْتُونِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَنُورُهُمْ مِثْلُ نُورِ الْأَنْبِيَاءِ .

الثالث عشر — ان هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة :

اختص الله هذه الأمة بأن لا تجتمع على ضلالة ونشأ من ذلك أن إجماعهم حجة وبأن اختلافهم رحمة وكان اختلاف من قبلهم عذاباً .

أخرج أحمد والطبراني عن أبي بصرة الغفاري عن رسول الله ﷺ قال : « سَأَلْتُ اللَّهَ أَنْ لَا يَجْمَعَ أُمَّتِي عَلَى الضَّلَالَةِ فَأَعْطَانِيهَا وَسَلَّتُهُ أَنْ لَا يُظْهَرَ عَلَيْهِمْ عُدُوّاً فَأَعْطَانِيهَا » . ( الحديث ) .

وأخرج الحاكم عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « لَا يَجْمَعُ اللَّهُ أُمَّتِي عَلَى الضَّلَالَةِ أَبَداً » .

وأخرج الشيخ نصر المقدسي في كتاب الحجة قال رسول الله ﷺ : « اخْتِلَافُ أُمَّتِي رَحْمَةٌ » .

وهذا الحديث رواه أيضاً الديلمي في مسند الفردوس عن ابن عباس مرفوعاً .



وروى الترمذي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَجْمَعُ أُمَّتِي أَوْ قَالَ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ عَلَى ضَلَالَةٍ وَيَذُ اللَّهُ عَلَى الْجَمَاعَةِ وَمَنْ شَذَّ شَذَّ فِي النَّارِ » .

وروى أبو داود عن أبي مالك الأشعري عن رسول الله ﷺ قال : « قَدْ أَجَارَكُمْ اللَّهُ مِنْ ثَلَاثٍ خِلَالٍ ذَكَرَ مِنْهَا وَأَنْ لَا تَجْتَمِعُوا عَلَى ضَلَالَةٍ .

الرابع عشر — إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْلِكُ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِجُوعٍ وَلَا غَرَقٍ :

اختص الله هذه الأمة بأن لا يهلكها بجوع ولا بغرق ولا يعذبون بعذاب عذب به من قبلهم ولا يسلط عليهم عدواً غيرهم يستبيح بيضتهم .

أخرج مسلم عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَعَارِبَهَا وَإِنَّ مُلْكَ أُمَّتِي سَيَلُغُ مَا زَوَى لِي مِنْهَا وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يَهْلِكَهَا بِسَنَةِ عَامَةٍ وَلَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ فَأَعْطَانِي » .

وأخرج ابن أبي شيبة عن سعد أن النبي ﷺ قال : « سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ لَا يَهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَهْلِكَ أُمَّتِي بِالْعَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلْتُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَرَدَّتْ عَلَيَّ » .

وأخرج الدارمي وابن عساكر عن عمرو بن قيس أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ اللَّهَ أَدْرَكَ بِي الْأَجَلَ الْمَرْحُومَ وَاخْتَارَنِي اخْتِيَاراً فَتَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَإِنِّي قَائِلٌ قَوْلًا غَيْرَ فَخَرِ إِبْرَاهِيمُ خَلِيلُ اللَّهِ وَمُوسَى صَفِيُّ اللَّهِ وَأَنَا حَبِيبُ اللَّهِ مَعِيَ لِيَوْمِ الْحَمْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

« وَإِنَّ اللَّهَ وَعَدَنِي فِي أُمَّتِي وَأَجَارَهُمْ مِنْ ثَلَاثٍ لَا يَعْصِيهِمْ بِسَنَةٍ وَلَا يَسْتَأْصِلُهُمْ عَدُوٌّ وَلَا يَجْمَعُهُمْ عَلَى ضَلَالَةٍ » .

وعند أبي داود من حديث أبي مالك الأشعري : « قَدْ أَجَارَكُمْ اللَّهُ مِنْ ثَلَاثٍ خِلَالٍ أَنْ لَا يَدْعُو عَلَيْكُمْ بَيْنَكُمْ فَتَهْلِكُوا جَمِيعاً وَأَنْ لَا يَظْهَرَ أَهْلُ الْبَاطِلِ عَلَى أَهْلِ الْحَقِّ وَأَنْ لَا تَجْتَمِعُوا عَلَى ضَلَالَةٍ » .

## شبهات وأباطيل مردودة

يُحس الشيوعيون والإشتراكيون الثوريون بخطر عظيم يواجهونه من الإسلام في كل مكان . ولذلك فإنهم يبذلون أقصى جهدهم لنشر مبادئهم بين الشعوب العربية والإسلامية ويستغلون جهل شبابنا ليصرفوهم عن الدين أو ليوهموهم أنه دين ناقص لا يصلح لقيام مجتمع حديث .

ومن ذلك أنهم يطعنون على الإسلام لأنه يؤمن بالروح فقط فهو دين خيالي .

الإسلام . هل هو نظام روحي فقط ؟

وذلك لأن الشيوعيين يعتقدون أن المادة أساس كل شيء . وهم ينكرون وجود الله وينكرون الروح . ويفسرون التاريخ تفسيراً مادياً ، أي أن المادة هي التي تسيّر التاريخ .

إن إنكار الروح في الإنسان وفي تسييرها الحوادث أمر ينقضه تاريخ الإنسانية منذ أقدم العصور ، وينقضه تاريخ الحضارات المختلفة التي ظهرت على وجه الأرض ، وينقضه التاريخ الإسلامي نفسه ، فالذي ينكر الروح في الإنسان كمن ينكر النور أو الهواء .

انهم يقولون : ان الروح لا ترى . ولكن أي إنسان لا يحس بها ، أو يشعر بآثارها وتأثيرها فينا ؟ والروح من الله ، ونحن لا نرى الله بأعيننا فحواسنا قاصرة عن ذلك ، لكننا نشعر بوجوده ونرى آثاره من خلال كل ما هو مخلوق على وجه الأرض .

( إنك حيثما تذهب لا تستطيع أن تقابل إلا الله ) ، كما يقول ( أندره

جيد ) في كتابه « الأغذية الأرضية » وقد كان  
والقرآن قبله يقول : ﴿ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهٌ ﴾  
ولقد أجمع مؤرخو الحضارات وعلماء  
لا تنشئ حضارة ولا تدفع إلى الإبداع ، ولا  
لا بد من العامل الروحي الذي يدفع ويتحرك

ومن محاسن الإسلام أنه يبين حقيقة الإنس  
فاهتم بهما جميعاً ، ولعله الدين الوحيد الذي أدرا  
بالروح .

وكم في التاريخ الإسلامي من مواقف تشب  
التأييد فهذه روائع الفن الإسلامي المنتشرة في أر  
والقيروان والقاهرة ودمشق وحلب وبغداد والم  
المتثلة في المساجد والرباطات والخانقاهات و  
جمعت بين عظمة الفن الإسلامي وروائع الإبداع  
الدافع روحي محض فأنفقت المادة عليها بسخا  
الصالح . وهناك مظاهر أخرى برزت خلال  
السمت والطابع مثل نشر العلم وبناء المدارس  
والملاجئ للمرضى والمقعدين والزمنى والعجزة  
للأطفال والأيتام . وتوزيع الأدوية وإكساء المحتاج  
وتزويج البنات الفقيرات وغير ذلك ، وهي كا  
استجابة لنداء الروح : نداء الإيمان والعمل الص  
وهذا الوليد بن عبد الملك كان يحتن الأ  
للمرضى الزمنيين من يخدمهم . وللأضراء ( العميا  
والفقراء وحرَم عليهم سؤال الناس .

وهذه زبيدة زوجة الرشيد أسالت الماء

ومنازل من بغداد إلى مكة ، ليسهل على المسافرين إلى مكة السفر حتى قال ابن جبير الرحالة المشهور : لولا آثارها الكريمة لما سلكت هذا الطريق ، أي في القرن السادس الهجري .

وهذا نور الدين محمود بن زنكي سلطان الشام ، كان يقف المال على من يعلم الأيتام الخط والقراءة ، وجعل لهم النفقة والكسوة ، وخصص الأموال للأرامل وبني مستشفى كبيراً في دمشق للفقراء والمساكين . وهذا السلطان الملك المؤيد المملوكي الذي تولى السلطنة سنة ٨١٥ هـ وقع في أيامه الغلاء حتى بلغ ثمن إردب القمح مطحوناً ألف درهم فكان يفرق على كل واحد من الفقراء والمساكين والغرباء القاطنين في الجوامع والمدارس والخوانق والزوايا في القاهرة رغيفين رغيفين ، وكان يرسل للمدرسين في المدارس عشرة دنانير وإردبا من القمح .

### الإسلام والمادة :

يزعم الشيوعيون أن الإسلام إنما انتشر لأجل المادة وأن الفتوح ما قامت إلا لجمع المال ونهبه . ويجعلون قضية الغنائم التي هي من ثمرات النصر دليلاً على هذا الزعم . وهذا زعم باطل لأننا نعلم أنه لا بد في الحروب من المغامر والمحاربين في جميع الأمم من أقدم عصور الإنسانية كان لهم الحق في ذلك ، ولكننا لانكاد نجد عند أولئك المحاربين هذا الإندفاع نحو الموت الذي نجده عند المسلمين لنوال النصر . ذلك لأن الإسلام حل عقدة الخوف من الموت عندما جعل للمسلم الجنة إذا مات شهيداً فكان كل مسلم يحب الإستشهاد في سبيل الله بدافع روعي بحت . ليكون في الجنة وحب الإستشهاد هو الذي كان يكتب النصر لجيوش المسلمين لا جمع المال .

إن الذين ماتوا لنوال ثواب الشهادة لا يعدون ، ولم تكن المادة هي كل شيء ، إن أخبار الفتوح تدل على ذلك . سواء من ناحية الخلفاء أو من ناحية المسلمين المحاربين أنفسهم .

فهذا عمر بن الخطاب كتب إلى عبيدة بن الجراح لما ولاه امرة الجيش  
( لا تقدم المسلمين على هلكة رجاء غنيمة .. وغض بصرك عن الدنيا وأله قلبك  
عنها ، وإياك أن تهلك كما أهلك من كان قبلك فقد رأيت مصارعهم ) .

وكتب عمر إلى النعمان بن مقرن عندما أمره بالتوجه إلى نهاوند يوصيه  
بالمسلمين ( ان رجلا من المسلمين أحب إلى من مائة ألف دينار ) . فلو كان  
الهدف المال والمادة ، لما أوصى أمراءه بالابتعاد عنها .

وعندما خرج العرب إلى الشام وكانت وقعة اليرموك طلب قائد الروم  
« ماهان » أن يتحدث إلى خالد بن الوليد ، فقال له ماهان : إننا علمنا ان الذي  
أخرجكم من بلادكم هو الجوع والعطش فهلموا إلي لأعطي كل رجل منكم عشرة  
دنانير وكسوة وطعاماً وترجعون إلى بلادكم ، فإذا كان من العام المقبل بعثنا لكم  
بمثلها فهزأ خالد منه ورفض ما عرضه عليه .

وقال « رستم » قائد الفرس للمغيرة بن شعبة عند ما أرسله إليه سعد  
ابن أبي وقاص : إنكم جيراننا وكنا نحسن إليكم ، ونكف الأذى عنكم فارجعوا  
إلى بلادكم ولا تمنع تجارتكم من الدخول إلى بلادنا . فقال له المغيرة : ( إنا ليس  
طلبنا الدنيا وإنما همنا الآخرة ) . ثم قال له : أرأيت إن دخلنا في دينكم أترجعون  
عن بلادنا ؟ قال : ( أي والله ثم لا نقرب بلادكم إلا في تجارة أو حاجة ) .

ويحدثنا المؤرخون أن المسلمين كانوا في موقعة اليرموك يتبايعون على  
الموت ، منهم عكرمة بن أبي جهل ، والحارث بن هشام ، وضرار بن الأزور ،  
وأربعمائة آخرون ، فلو كانوا يبتغون المادة لفروا من الموت .

وقد وصفهم أحد العرب وهم في قتالهم مع الروم فقال : رأيت رجالاً  
رقاقاً يركبون خيولاً عناقاً . أما الليل فرهبان وأما النهار ففرسان . يريشون النبل  
ويبرونها ويثقفون القنا لو حدثت جليساك حديثاً ما فهمه عنك لما علا من  
أصواتهم بالقرآن والذكر .

فلو كان هدفهم المادة لكانوا في الليل لصوصاً لارهبانا يذكرون الله ولما سمع منهم صوت يدل عليهم .

وذكر ابن كثير أن قتيبة بن مسلم عند ما بلغ الصين أرسل رسله إلى ملك الصين يدعوهم إلى الإسلام فقال لهم : قولوا لصاحبكم — أي لقتيبة — ان ينصرف راجعاً عن بلادي ، وإلا بعثت لكم من يهلككم عن آخركم .

فقال له هبيرة رئيس الوفد : ... أما تخويفك إيانا بالقتل فإننا نعلم ان لنا أجلاً إذا حضر فأكرمه عندنا القتل ، فلسنا نكرهه ولا نخافه . وكان الملك أغراهم بالمال الكثير فرفضوه .

ودخل المسلمون حمص . وأخذوا من أهلها خراجهم لقاء حمايتهم والذب عنهم ثم اضطروا إلى تركها فردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج ، وقالوا لهم : لقد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم . فقال أهل حمص إن ولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم . فلو كانوا يريدون المادة لما أعادوا إلى أهل حمص ما أخذوه منهم .

### الإسلام والمساواة الاجتماعية :

ويزعم أعداء الإسلام من الشيوعيين أن المساواة الإجتماعية معدومة في نظام الإسلام وأنه يشجع على الطبقة المتفاوتة المستغلة المستأثرة .

وهذا زعم فاسد يردده واقع الإسلام المشاهد المحسوس .

إن المبدأ الذي وضعه الرسول « الناس سواسية كأسنان المشط » ، واضح جداً . فلا كبير ولا صغير ولا غني ولا فقير ولا أمير ولا صعلوك ... الجميع سواسية ، هم يعبدون جميعاً إلهاً واحداً يدعونه ويتجهون إليه بلا واسطة ولا شفعاء ويقفون في الصلاة صفاً واحداً ، الأبيض بجانب الأسود ، والحاكم بجانب أي فرد من أفراد الجماعة ، ويصومون شهراً واحداً بشكل واحد ووقت واحد ، لا يسقط الصوم عن أحد غناه ولا حسبه ولا لونه ولا يزيد فيه فقره

أو زهده . ويدفعون الزكاة — والزكاة للمجتمع لا لله — بنسبة واحدة ، تنقص على الفقير لأن ماله قليل ، وتزيد على الغنى لأن ماله كثير ، ولأن للمجتمع فيه حقاً .

وفي القضاء نجد قانوناً واحداً يطبق على الجميع ، والهدف الوحيد الذي ألح الإسلام على بلوغه هو العدل ، وإن أصغر رجل من الرعية يجيز له الإسلام أن يقاضي الحاكم أو الخليفة أو السلطان أو الأمير إذا ظلمه أمام القاضي . والشرع واحد للجميع ، والقانون يطبق على الجميع فعندما سرقت المرأة المخزومية — وبنو مخزوم كانوا من سادة العرب — جاء أسامة بن زيد إلى رسول الله ﷺ ليشفع لها . فقال رسول الله ﷺ : « يا أسامة أئتشفع في حدٍّ من حدود الله ؟ إنما هلكَ بنو إسرائيل لأنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدَّ ، والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » . ( وهذا حديث صحيح رواه البخاري ومسلم ) .

وهذه المساواة الاجتماعية تبدو واضحة في كثير من حقب تاريخنا . خذ مثلاً رجلاً كأبي هريرة يحدثنا عن نفسه فيقول : ( نشأت يتيماً وهاجرت مسكيناً وكنت أجيراً لبنى غزوان بطعام بطني .. أحذو بهم إذا ركبوا واحتطب إذا نزلوا ، فالحمد لله الذي جعل الدين قواماً وأبا هريرة إماماً ) . فكيف لأبي هريرة الأجير المسكين أن يرتفع إلى هذه المنزلة ، يؤم المسلمين ، لولا أن ساوى الإسلام اجتماعياً بين الناس وهدم الفوارق الطبقيّة بينهم .

وهذا أبو العالية الرياحي ( مات سنة ٩٣ ) كان عبداً مملوكاً لامرأة من بني رياح ، فقرأ القرآن وبرع فيه ، حتى أصبح لا يوجد بعد الصحابة من هو أعلم بالقرآن منه يحدثنا عن نفسه فيقول : ( كان عبد الله بن عباس يرفعني على سريره . وقريش أسفل منه ، ويقول : العلم يزيد الشريف شرفاً ويجلس المملوك على الأسرة ) .

فمن أين لهذا العبد أن يرتفع على ابن عم رسول الله ﷺ لولا أن الإسلام ساواه به . وانه جعل للعالم منزلة ليس مثلها منزلة الحسب .

وهذا الإحساس بالمساواة الإجتماعية هو الذي كان يدفع أي فرد من أفراد الرعية إلى الاعتراض على الخليفة أو الحاكم إذ ظلم أو أخطأ ، وهو الذي كان يدفعه إلى نصحه وإسداء المشورة له دون خوف أو وجل .

جاء رجل يحدث في دمشق ويحاول أن يصرف الناس عن أخطاء الحكام زمن بني أمية ، فقال : ( اعبدوا ربكم ولا تشركوا به شيئاً ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الأمراء فإن كان خيراً فلكم وإن كان شراً فعليهم وأنتم منه برءاء ) . وكان الشعبي العالم حاضراً فوقف وقال له : كذبت .

وفي أيام الصليبيين سمح الملك الصالح إسماعيل لهم بدخول دمشق وشراء السلاح منها ، وأعطاهم صنفد والشقيف ، فثارت ثائرة العز بن عبد السلام وأصدر فتوى ضد الملك الصالح حرم فيها بيع السلاح للفرنج لأنهم يشترونه ليقاتلوا به المسلمين ، وصار يعرض بالملك على المنبر في مسجد دمشق غير مبال به ولا خائف فاعتقله السلطان ومنعه من الفتيا ، فلم يخف ولا توانى عن اداء واجب النصح والتحذير .

وهناك مئات من الحوادث تشبه هذه ، فلو لا الإحساس بالمساواة الإجتماعية لما تجرأ واحد من هؤلاء على الاعتراض أو النصح أو التحذير .

لقد أخطأ أدعياء الإصلاح ، لأنهم استوردوا المبادئ والخطط واستعاروا النظم والشرائع من هناك وهناك قبل أن يراجعوا الرصيد الروحي والتراث الفكري الذي هو ملك هذه الأمة ، إنهم يلجأون إلى الاستدانة ورصيدهم مذخور ، ويستوردون وخزائنهم غنية وخاماتهم صالحة وإمكانياتهم قوية .

إن الإصلاح الحقيقي الجذري والتغيير الثوري حقاً هو رد هذه الأمة إلى أصولها ومنابعها وإخراجها من ذلك التيه الطويل لتعود إلى إكتشاف نفسها ومعرفة قدرها وتفتح رؤيتها لغايتها وطريقها وتعمل على تحقيق ذاتها وإثبات وجودها ، وإخراجها من التبعية الفكرية إلى الاستقلال الحقيقي ، ومن غبش



الرؤية إلى وضوحها ، ومن الذبذبة بين الاتجاهات إلى اتجاه أصيل متميز لا شرقي ولا غربي ولا رأسمالي ولا شيوعي .

ولن نجد هذا إلا في الإسلام فهو وحده سبيل الإنقاذ للأمة وطريق الخلاص للبشرية .

### تصور خاطيء عن حقيقة الدعوة إلى تحكيم الإسلام :

إننا حين ننادي بالرجوع إلى الحكم الإسلامي وحتمية الحل الإسلامي ، فإنه يقفز إلى أذهان كثير من المحسوبين على الإسلام — فضلاً عن أعدائه — يقفز إلى أذهانهم صور الخيام الساذجة في الصحراء وصور الأعراب الرحل على الإبل أو العرب المقيمين في الأكواخ ويتصورون بساذجة أن معنى الحكم الإسلامي هو العودة إلى تلك الحياة البسيطة الساذجة الخاوية من كل أسباب الحضارة الإنسانية التي استحدثت في خلال ألف وأربعمائة عام .

وإذن فلا عمارة ولا مدنية ولا صناعة ولا تجارة ولا علم ولا فن حتى الشعر ذلك الفن العربي الأصيل يخيل لهذا الفريق من الناس أن حكم الإسلام سيختم على أفواه قائله ومنشديه مالم يحولوه إلى مواعظ دينية وألفيات نحوية .

وليس حكم الإسلام هو الذي يثير هذه الصورة الماحلة في خيالهم بل إن بعضهم لثير هذه الصورة في حسه مجرد الدعوة إلى الأخلاق ويقول قائلهم إذا كنا سنتحدث عن الأخلاق إذن فلنرجع إلى عيشة الخيام . ( كما نقل ذلك الشهيد سيد قطب عن أحد أساتذة التربية العائدين من أمريكا في كتابه معركة الإسلام والرأسمالية ص ٦٥ ) .

إن النظام الإسلامي ليس معناه فقط صورة ذلك المجتمع الإسلامي في نشأته ، بل معناه كل صورة اجتماعية خاضعة لفكرة الإسلام الكلية عن الحياة .

والنظام الإسلامي يتسع لعشرات من الصور تتفق مع النمو الطبيعي

للمجتمع ومع حاجات العصر المتجددة ما دامت فكرة الإسلام الكلية تسيطر على هذه الصور في محيطها الخارجي الفسيح .

إن الشظف والبداءة ليسا أصلاً من أصول الإسلام كما يعتقد بعض السذج من الناس ، إنما كان الشظف ظاهرة اقتصادية في مرحلة خاصة وقد كان ﷺ يحثهم على الصبر ويؤكد على ذلك ويقوى عزائمهم كيلا تنهكت نفوسهم وتنهار قواهم وتخذلهم طاقتهم على المقاومة والكفاح ، فأما بعد ذلك فكل فرد مطالب بأن يستمتع في الحدود التي لاتصل إلى مستوى الترف ولاتدع الإنسان عبداً لشهواته ولذائده .

وقد استجابت هذه الشريعة الغراء لمطالب حياة البادية كما استجابت فيما بعد لحياة الدولة الناشئة في عهد سيدنا محمد ﷺ المتوسعة في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ثم ظلت تستجيب لحياة الحضارة فيما بعد ما بقيت في الأمة الإسلامية حياة ، ثم وقعت أحداث وأحداث اختل فيها توازن الشخصية الإسلامية وماتت حيويتها انعزل فيما الحكم الإسلامي المتكامل والمنهج الرباني الشامل .

وإذا دبّت الحياة في هذه الأمة فالشريعة الإسلامية حاضرة تلبي حاجتها المتجددة ومطالبها المتغيرة بما فيها من سعة ومرونة وشمول .

## حقيقة الإسلام الحاكم

واننا حين ندعو إلى تحكيم الإسلام في شؤوننا العامة والخاصة فإننا نعني به :

الإسلام كعقيدة تعبدية وقانون تشريعي ونظام اقتصادي وفلسفة للحكم ورسالة للأخلاق وعدالة اجتماعية عالية ، كدستور شامل لكل ما في الحياة ، دستور كامل يتسع لكل ما تتطور إليه المجتمعات الإنسانية والثقافات العلمية والألوان الحضارية أياً كانت زماناً ومكاناً .

الإسلام الذي جاء كما قال البطل الإسلامي « زهرة بن خويه » لرسم قائد الفرس : ( .... ليخرج الناس من عبادة الناس إلى عبادة الله ومن جور الحكام إلى عدالة القرآن ومن ضيق الجهل إلى سعة الإيمان ) ، وأن الناس بنى آدم وحواء إخوة لأب وأم .

الإسلام الذي حرر الفرد ضميراً ووجداناً وعملاً وعقيدة في غير استهتار أو نزوات وحرر الجماعات من رق الفوارق وسموم الحقد في غير صراع ولا شهوات وحرر المحكومين من قبضة الحاكمين إلا بالعدل والحق ، فلا طاعة في معصية ولا استجابة في باطل وحرر الأمة من شهوة الاستعمار ، فلا عدوان ولا قتال للتملك والاستعلاء فإن بغت أمة على أمة ﴿ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ .

وحرر كل شيء سواء أكان مادياً أم روحياً بكلمة واحدة هي ميزان السموات والأرض وهي صلة الناس وهي عدالة الخالق وهي عقيدة الدنيا ( لا إله إلا الله ) فلا خوف من طاغية ولا رعب من ظالم ولا نفاق لزلفى ولا خديعة لربح ولا جزع لمصاب ولا تمرد لشهوة لأن كل هذا وما يجري في

عنايه يناني كلمة التوحيد ... كلمة الحرية ... كلمة العدالة ... ( لا إله إلا الله ) .

الإسلام الذي جعل المال مال الله ، وعباد الله الأغنياء فيه مستخلفين لخيرهم ولخير الناس ، فلا احتكار للأرزاق ولا ملكية تقول أنا حرة التصرف فيما أملك ، فالمال ليس مالها ، وإنما هي موظفة فيه للخير العام فإن انحرفت فالمال مال الجماعة وإن اكتنزت وتضخمت لاحقتها القوانين ولاحقها حقوق المحرومين والعاطلين والفارين ، لأن الله لا يحب أن يكون المال دولة بين الأغنياء ... والأرض لمن يفلحها ، لمن يزرعها بنفسه أو أجيره ، فإن لم يفعل ثلاث سنوات فقد عطل مرفقاً عاماً ، وحق للدولة أن تنتزعها منه وتعطيها دون مقابل لمن يحييها ويزرعها .

الإسلام الذي يفرض لكل إنسان بيتاً وزوجة وعملاً يتكفل بأجرة حاجاته على السعة من كساء وغذاء ودواء من غير ضعف ولا عسر ، فإن لم يجد فعلى بيت المال أن يقوم به وبأسرته حتى تدبر الدولة له عملاً فإن الحاكم مسئول عن أقوات الرعية .

الإسلام الذي فرض لكل جاهل معلماً يعلمه ، ولكل أعمى قائداً يأخذ بيده ، وأمر بأن تكون المكتبات في الحدائق العامة للناس جميعاً حتى ينعم الشعب بصحة الجسد وصحة العقل .

الإسلام الذي جعل فريضة مقررة في بيت المال لكل مولود يولد في الإسلام ، ويمشي الأجر مع حياة الطفل صعوداً حتى يبلغ أشده ويأخذ حظه من التعليم أو الصناعة أو التجارة أو الجندية .

الإسلام الذي حدد وظيفة الحاكم راعياً يسوس الناس لخيرهم وإقامة شريعة ربهم ، وهو يعد كأحدهم ، لا يجوز أن يكون له في مطعمه وملبسه ومركبه أكبر مما يطبق أواسط الناس ، وجعل له على المسلمين الطاعة والنصيحة والعون ما دام على الصراط السوي فإن انحرف فكتاب الله الفيصل ، والأمر شورى والحقوق قضاء ، وإلا فالصيحة الإسلامية الحرة ( لو رأينا فيك اعوجاجاً

لقومناه بحد سيوفنا ) في غير بغى ولا عدوان ، والسيوف هنا إرادة الكثرة المؤمنة .  
الإسلام الذي يتسع تشريعه مع الحياة والصالح العام في غير ضيق ولا حرج  
ولا تعنت ولا جهود ، فيقول سبحانه تعالى : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد  
بكم العسر ﴾ . ( وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ ، ويقول رسوله :  
« لا ضرر ولا ضرار » .

فأينما وجدت المصلحة فثم شرع الله ، والله جل جلاله يحب لعباده الرحمة  
واليسر والسعة ويكره أن يصيبهم الضيق والضرر والشدة ، ولقد سن لهم الشرائع  
لتحقق لهم ما يحب ويرضى فشرائع الله تدور مع الخير واليسر ( أينما وليا  
وجهيهما ) كما يقول ابن القيم عن عائشة إذ تقول : ( ما خيّر رسول الله بين أمرين  
إلا اختار أيسرهما ) .

الإسلام الذي يحب العزة ويكره الذل ويجعل الخير في اليد العليا ويقدر يد  
العامل لأنها كادحة صانعة ، ويجعل من يهضم حقها أو يؤخر أجرها خصيماً لله .  
كما يكره أن يرى إنساناً فارغاً من عمل الدنيا أو عمل الآخرة ، لأن الفراغ حليف  
الشیطان .

الإسلام الذي وحد البشرية كافة فلا ألوان ولا جنسيات ولا عصبية بين  
الناس . بل الجميع سواسية لا تفاضل إلا بالتقوى ، وليست التقوى عبادة  
فحسب ، بل إن العمل الصالح في الدنيا ... العمل الصالح الذي ينفع الناس  
ويدفعهم خطوات في طريق العلم أو في طريق الرفاهية هو أكبر التقوى .

الإسلام الذي يرقب صدور الناس وقلوبهم كما يرقب أعمالهم وأفكارهم ،  
ثم لا ينظر إلى وجوههم وأقوالهم لأنها ليست في موازين الخير والإيمان .

الإسلام الحضاري الرؤوف الرحيم بكل ذي كبد حي حتى لتدخل امرأة  
النار في هرة حبستها فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض .  
ويدخل الجنة رجل رأى كلباً عطشاناً في الصحراء فسقاه فغفر الله له  
فأدخله جناته .

## مسك الختام الوصية بالقرآن

أما بعد : فإن سر نجاح المسلمين في وحدتهم وتضامنهم هو تمسكهم بدينهم ، ورجوعهم إلى العمل بالكتاب والسنة ، فبذلك يمكن الله لهم في الأرض ويستخلفهم ، ويبدلهم من بعد خوفهم أمناً ، فقد قال الله تعالى في محكم كتابه المبين : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۝ ﴾ .

بهذا نصر الله الصحابة والسلف الصالحين ، وأيد الغزاة الفاتحين فنشروا الدين والأخلاق والفضيلة ، وهدموا الشرك والبدع والرديلة ، وأنقذ الله بهم الإنسانية من كبوتها ، وأيقظ النفوس بعد غفلتها ، وفتح بهم أعينا عمياً وآذاناً صمّاً . وقلوباً غفلاً ، وكانوا هداة مهتدين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، رضي الله عنهم وأرضاهم ، فالمسلمون اليوم يحتاجون إلى توعية عامة وثقافة دينية ، ليهتدي الضال ، ويتنبه الغافل ويعم السلام ، ويسود الإسلام ، وتستريح البشرية من العناء الذي أحاط بها ، وتحمد النفوس السرى عندما ترى بشائر الآمال تتحقق بفضل الإتياع لهذا الدين المتين .

وإن كتاب الله بيننا هو شريعتنا ومحجتنا وهدانا وهو أمام كل نهضاتنا . والنهضات اليوم لا ترتجل ، وإنما تبني لبنة لبنة بأيدي الصنائع المهرة المدربين وتعد خطوطها العريضة في رؤوس المفكرين وقلوب المؤمنين وعقول المشرعين وتنتج قواعدها وتنسج دروعها في معامل العلماء وصحف الاجتماعيين وأندية الإقتصاديين ، إن النهضة الإسلامية يجب أن تخرج من نطاق الكلمات الجوفاء والصرخات الرعناء والعصبيات الحمقاء والدعوات المرتجلة والحماسات الجاهلة إلى

ساحات التنظيم والإعداد والتنسيق الكامل والكفاءة العلمية والخبرة الفنية .

يجب أن يمسك بزمامها العلم المؤمن ، والوعي اليقظ المتطور والخلق الرفيع والقلب الواقعي والقلب الخاشع الحي ، والحزم المتوثب المجدد والفداء الحكيم الصاعد إلى الله بغاياته وأهدافه حتى لا تنحرف أو تضل أو تتفرق بها السبل .

يجب أن تركز على بعث عقليّ جديد يقوم على اكتشاف الإسلام من جديد ، لكل ما فيه من إمكانيات وقوى وصيحات عالمية وأن يستضاء في كل هذا بالمصدرين الأساسيين للإسلام ، كتاب الله وسنة رسوله ، كما يوضع في الميزان مناهج الحضارة الإسلامية في عصورها الإيمانية وما رسمته للمجتمعات البشرية من نظم وتشريعات وما حققته لأبنائها في ميدان العدالة الاجتماعية والقوة الإقتصادية والعظمة العلمية ، والكفاءة الحربية والمثاليات الأدبية والخلقية .

كما يجب أن نحدد موقفنا من هذه الحضارة المادية المنحلة ذات البريق العلمي الباهر ، والروح الجاهلي الملحد الفاجر . هذه الحضارة التي تسللت إلى عقولنا وعاشت في قلوبنا وأخذت علينا سبل تفكيرنا وضربت على أبصارنا بالرغبة والرغبة وهيمنت هيمنة كاملة على أخلاقنا ونظمنا .

هذه الحضارة التي تضاد الإسلام روحاً وتقنياً وتخالفه صراحة فيما يتناول من شؤون الحكم ، وفيما يرسم للمجتمعات من عادات وأخلاق ومثاليات .

والإسلام بناء كامل ، له أفقه الحضاري ، وله جهازه الثقافي وقانونه التشريعي ومجتمعاته التي تقوم على الأخلاق ومدارسه التي تركز على الروح والآداب ، ومثالياته التي تبني عليها الحياة وتصعيده لكل عمل من أعمال الدنيا إلى الله ، وهو أعز من أن يفنى في غيره وأكبر من أن يذوب في ثقافة متجاوزة ولقد أنزله الله تعالى ديناً مصداقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه وجعل من كل مؤمن به إماماً للناس يقود مواكبهم للحق ويأخذ بأيديهم إلى كلمات الله .

إنه دين ورث النبوات والرسالات كافة وارتضاه الله أفقاً لجامعة الرسل وعنواناً لكل كتاب مقدس فأبي تنازل منه في ميادينه التشريعية والخلقية والتعبدية

هو إهدار لكل الأديان وتفريط في أمانة الله ومساندة للجاهلية . ولكنه أيضاً لا يعرف الجمود والتزمت والانفصال داخل الأسوار إنه لدين يمشي بالحياة ولا يقف ، ويمتد مع الناس إلى الخير ولا ينكص .

وعلى هذا الضوء نحدد موقفنا من الحضارة القائمة نأخذ منها مسببات القوة والبأس الشديد والعلم العريض ونعرض عن تحللها وعدوانها وجاهليتها الشهوانية الملحدة .

وعلينا أيضاً أن نحدد موقفنا ونحن نتناول الإسلام من جديد موقفنا مما ابتلي به صورة الإسلام من طوائف ونحل ومذاهب ، ومزقت وحدته وطمست أنواره وبددت قوته وطاقاته ، وما ابتلي به المسلمون من انحراف وضلال في فهم الرسالة العامة للإسلام والروح الشاملة لعقيدته .

لقد أخبرنا نبينا وسيدنا محمد ﷺ عن كل هذه الأمراض والمصائب التي تنخر في الأمة وتهدم البناء . وتشتت الشمل . وتفرق الجمع .

لقد وصف ﷺ الداء وأرشد إلى الدواء فقال : « ستكون فتن كقطع الليل المظلم » ، قال الراوي ، قلت يا رسول الله ، وما المخرج منها ؟ قال : « كتاب الله تبارك وتعالى فيه نبأ من قبلكم وخبر من بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ونوره المبين والذكر الحكيم » .

وكتاب الله في مفهوم كتاب الله يعني أيضاً العمل بسنة رسول الله ﷺ عليه وسلم ، فالدعوة إلى كتاب الله إذا كانت صادقة فهي دعوة إلى سنة رسول الله ﷺ لأن كتاب الله دعا إلى اتباع سنة رسول الله ﷺ ، فالدعوة إلى القرآن والعمل به وترك السنة النبوية دليل واضح على تناقض الداعي وكذبه وافترائه .

وقد اعتنى النبي ﷺ بتعليم القرآن عناية عظيمة خصوصاً بالنسبة للصبيان الصغار ، ولاشك أن في ذلك فائدة كبرى وهي لأجل أن تسرى روح القرآن في



قلوبهم ونوره في أفكارهم ومداركهم وحواسهم ولأجل أن يتلقن عقائد القرآن منذ الصغر ، وأن ينشأ ويشب على محبة القرآن والتعلق به والإلتزام بأوامره والإنتهاء عن مناهيه والتخلق بأخلاقه والسير على مناهجه .

ولذلك اعتنى المربون في هذه الأمة بتعليم الصبيان القرآن وذلك أصل من أصول الإسلام فينشأون على الفطرة ويسبق إلى قلوبهم أنوار الحكمة قبل تمكن الأهواء منها وسوادها بأكدار المعصية والضلال كما قال القائل :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكنا

وكان ﷺ يشترط على وفود الأعراب بعد إسلامهم قراءة القرآن بينهم وتعليمهم أمر الدين وإقامة المودنين ..

وفي اعتناء الصحابة رضي الله عنهم والسلف الصالح بعدهم بتعليم الصبيان اقتداء لما كان عليه المصطفى ﷺ واستجابة كاملة لأمره ومسارة صادقة لاكتساب الخيرات والبركات التي ضمنها بإذن الله لمن فعل ذلك إذ قال لهم : « من علّم ابنه القرآن نظراً غفر له ومن علمه إياه ظاهراً — أي عن ظهر قلب — بعثه الله على صورة القمر ليلة البدر ويقال لابنه : اقرأ ، فكلما قرأ آية رفع الله عز وجل الأب بها درجة إلى آخر ما معه من القرآن » . رواه الطبراني عن أنس قال الهيثمي : وفيه من لا أعرفه .

وقال : « ما من رجل يعلم ولده القرآن في الدنيا إلا تَوَجَّ أبوه يوم القيامة بتاج في الجنة يعرفه به أهل الجنة بتعليم ولده القرآن في الدنيا » ، رواه الطبراني عن أبي هريرة ، وفي رواية عند الإمام أحمد : « أنه يُكسَى والداه حلتين لاتقوم لهما الدنيا — أي لا تقدر بهما الدنيا — فيقولان : بم كسينا هذا ؟ فيقال : يأخذ ولدك القرآن » ، وفي رواية الطبراني : « بتعليم ولدك » .

وقال ابن خلدون في المقدمة في فضل تعليم الولدان : « اعلم أن تعليم الولدان القرآن شعار من شعائر الدين أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه في جميع أمصارهم بما يسبق فيه القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن وصار

القرآن أصل التعليم الذي يبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات ثم اختصت العوائد الإسلامية بتقدم دراسة القرآن إثارةً للتبرك وخشية ما يعرض للولد من جنون الصبا من الآفات والقواطع فيفوته القرآن . اهـ .

والقرآن الكريم : هو كلام الحكيم العليم رب العالمين ، نزل به روح الأمين على عبده ورسوله وأفضل خلقه وسيد أنبيائه وخاتم المرسلين سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين ، علماً وعرفاناً وبصائر وتبياناً ورحمة وفرقاناً وهدى ونوراً وبلاغاً للناس وإنذاراً وتبشيراً وذكرأً مباركاً حكيماً وعروة وثقى وصراطاً مستقيماً وعدلاً وصدقاً وقصصاً حقاً ، قرآناً عربياً مبيناً في أعلى طبقات البلاغة معجزاً للثقلين كافة في لفظه ونظمه وأسلوبه ومدلوله . ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ .

ومعجزة باهرة على وجه الدهر باقية ، دليلاً على صدق الرسول ﷺ في رسالته العامة الخالدة للثقلين كافة إلى يوم القيامة :

أو لم يكفهم من الله ذكر	فيه للناس رحمة وشفاء
أعجز الإنس آية منه والجن	فهل تأتي بها البلغاء
كل يوم يهدي إلى سامعيه	معجزات من لفظه القراء
تحلى به المسامع والأفواه	فهو الحلبي والحلواء
رق لفظاً وراق معنى فجاءت	في حلاها وحليها الخنساء
وأرتنا فيه غوامض فضل	رقة من زلالة وشفاء
إنما تجتلي الوجوه إذا ما	جليت عن مرآتها الأصداء
سور منه أشبهت صوراً منا	ومثل النظائر النظراء
والأقاويل عندهم كالتماثيل	فلا يومنك الخطباء
كم أبانت آياته من علوم	عن حروف أبان عنها الهجاء
فهي كالحب والنوى أعجب الـ	زراع منه سنابل وزكاء

فأطالوا فيه التردد والريب فقالوا سحر وقالوا افتراء  
 وإذا البينات لم تغن شيئاً فالتماس الهدى بهن غناء  
 وإذا ضلت العقول على علم فماذا تقوله النصحاء  
 له أبهى طلاوة وفيه أعظم حلاوة كلما زدته تلاوة ، فيه من الأسرار الإلهية  
 عجائب ومن أنواع العلوم والمعارف غرائب ومن أحسن القصص مواعظ ومن  
 أصدق الأمثال بصائر : ﴿ يَهْدِي لِلتي هِيَ أَقْوَمُ وَيُشَرُّ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ  
 الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ . ﴿ كَتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ  
 حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ . لم يفرط فيه الله تعالى من شيء ، آيات بينات وحكم بالغات  
 ورحمة للمؤمنين وشفاء لما في الصدور وضحت به المحجة وقامت به المحجة على  
 الثقلين عامة ﴿ وَيَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ .

آيات حق من الرحمن محدثة	قديمة صفة الموصوف بالقدم
لم تقترن بزمان وهي تخبرنا	عن المعاد عن عاد وعن إرم
دامت لدينا ففاقت كل معجزة	من النبيين إذ جاءت ولم تدم
محكمات فما يُيقن من شبه	لذى شقاق وما ييغين من حكم
ما حوربت قط إلا عاد من حرب	أعدى الأعادي إليها ملقي السلم
ردت بلاغتها دعوى معارضها	رد الغيور يد الجاني عن الحرم
لها معان كموج البحر في مدد	وفوق جوهره في الحسن والقيم
فما تعد ولا تحصى عجائبها	ولا تسام على الإكثار بالسأم
قرت بها عين قاريها فقلت له	لقد ظفرت بجبل الله فاعتصم
ان تلتها خيفة من حر نار لظى	أطفأت حر لظى من وردها الشبم
كأنها الحوض تبيض الوجوه به	من العصاة وقد جاؤوه كالحمم
وكالصراط وكالميزان معدلة	فالقسط من غيرها في الناس لم يقم
لا تعجبين لحسود راح ينكرها	تجاهلاً وهو عين الحاذق الفهم
قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد	وينكر الفم طعم الماء من سقم

لقد ربط الله سبحانه وتعالى عزنا بعز القرآن وشرفنا بشرفه وبقائنا ببقائه  
يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه انا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام فمهما  
نطلب العزة بغير ما أعزنا به أذلنا الله .

وهذا القول من عمر رضي الله عنه هو ثمرة ما تلقاه عن رسول الله ﷺ إذ  
جاء يوماً بنسخة من التوراة إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله : هذه نسخة  
من التوراة فسكت فجعل يقرأ ووجه رسول الله ﷺ يتغير فقال أبوبكر :  
( ثكلتك الثواكل ما ترى ما بوجه رسول الله ﷺ ) ، فنظر إلى وجه رسول الله  
ﷺ فقال : ( أعوذ بالله من غضب الله ورسوله رضيينا بالله رباً وبالإسلام ديناً  
وبمحمد نبياً ) ، فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفس محمد بيده لو بدا لكم  
موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتكم عن سواء السبيل ولو كان حياً وأدرك نبوتي  
لاتبعني .

وتنبه لهذا أعداء الإسلام بحذر ويقظة إذ وقف أحدهم ممسكاً بيده القرآن  
في مجلس رسمي عام قائلاً لأصحابه : ( انكم لن تنصروا ما دام هذا بين  
المسلمين ) .

ولذلك جاء الأمر بتعاهد القرآن خوف النسيان بقوله ﷺ : « تعاهدوا  
هذا القرآن فوالذي نفس محمد بيده هو أشد تفلتاً من الإبل من عقلها ، والمعنى أن  
المؤمن ينبغي له المحافظة على تلاوة القرآن الكريم ومدارسته ومذاكرته خشية أن  
يتفلس منه وينساه .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « إنما مثل صاحب  
القرآن كمثل الإبل المعقلة ، ان عاهد عليها أمسكها وأن أطلقها ذهبت » . متفق  
عليه .

وروي الدارمي بإسناده عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : « أكثروا  
تلاوة القرآن قبل أن يرفع قالوا : هذه المصاحف ترفع فكيف بما في صدور

الرجال ، فقال : يسرى عليه ليلاً فيصبحون منه فقراء وينسون قول لا إله إلا الله ويقعون في قول الجاهلية وأشعارهم وذلك حين يقع عليهم القول .

وجاء التحذير عن الإعراض عن القرآن وتعريضه للنسيان .. فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال ، قال رسول الله ﷺ : « إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب » . ( رواه الترمذي وصححه ) . وعن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « عرضت عليّ أجور أمتي حتى القذاة يخرجها الرجل من المسجد ، وعرضت عليّ ذنوب أمتي فلم أر فيها ذنباً أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيها رجل ثم نسيها » . ( رواه أبو داود و الترمذي وغيرهما ) .

وعن سعد بن عباد رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « ما من امرئ يقرأ القرآن ثم ينساه إلا لقي الله يوم القيامة أجذم » . ( رواه أبو داود ) .

وقد أوصى النبي ﷺ في مواقف وداعه كلها بالتمسك بكتاب الله تعالى والاهتداء بنوره ، فقد روى الإمام مسلم وأحمد عن زيد بن أرقم رضي الله عنه أنه قال : ( قام رسول الله ﷺ يوماً فينا خطيباً بماء يدعى — أي مكان يسمى — حما بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعد وعظ وذكر ثم قال : « أما بعد : ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول فأجيب — يريد بذلك وفاته ﷺ — وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به ، قال زيد بن أرقم فحث النبي ﷺ على كتاب الله ورغب فيه ، ثم قال : « وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي » .

وعن عبد الله بن عمر رضي عنهما أنه قال : ( خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً كالمودع فقال : « أنا محمد النبي الأمي أنا محمد النبي الأمي أنا محمد النبي الأمي لا نبي بعدي أوتيت فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه وعلمت كم خزنة النار وحملة العرش وتجوور بي وعوفيت وعوفيت أمتي . فاسمعوا وأطيعوا ما دمت فيكم فإذا ذهب بي فعليكم بكتاب الله أحلوا حلاله وحرموا حرامه » . ( رواه أحمد وغيره ) .

وإن من أعظم المنن الإلهية التي خص الله تعالى بها هذه الأمة المحمدية دون سائر الأمم أنه جعل قلوب هذه الأمة أوعية لكلامه وصدورها مصاحف لحفظ آياته لا يغسله من قلوبهم تيار الماء ولا يمحوه من صدورهم كيد الأعداء ، قال تعالى : ﴿ بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ﴾ .

وروي عن علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « من قرأ القرآن فاستظهره فأحل حلاله وحرم حرامه أدخله الله الجنة ، وشفعه في عشرة من أهل بيته كلهم قد وجبت لهم النار » . (رواه الترمذي ) .

وروى عنه ﷺ أنه قال : « من أعطاه الله تعالى حفظ كتابه فظن أن أحداً أعطي أفضل مما أعطى فقد غلط » ، وفي رواية : « فقد صغر أعظم النعم » . (رواه البيهقي والبخاري في تاريخه ) . وقد أمر الله تعالى بإكرام أهل القرآن وتعظيمهم وتقديمهم على غيرهم لأنهم من شعائر الله تعالى يجب تعظيمها وإجلالها لله ، قال الله تعالى : ﴿ ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب ﴾ .

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه وإكرام ذي السلطان المقسط » .

هذا وبالله التوفيق والهداية إلى أقوم طريق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم والحمد لله رب العالمين .

نحيح ميمون

# الفهرس

الموضوعات	الصفحة
تقريظ وتقديم .....	٥
مقدمة وتمهيد .....	٧
القرآن حجة الله البالغة .....	١١
مكانة السنة النبوية وفضلها .....	١٧
حجية السنة .....	١٩
وظيفة السنة في التشريع .....	٢٠
وحدة الأديان السماوية في الأساس .....	٢٣
الحاجة إلى هداية الله وفشل العقل وحده في إصلاح المجتمع .....	٢٧
مصدر التشريع وسلطته .....	٢٩
التشريع الإسلامي وكماله .....	٣٢
الشريعة الإسلامية وواقع الحياة .....	٣٦
أصول الكمال والسمو في الشريعة الإسلامية .....	٣٨
الأول : فتح باب الاجتهاد .....	٣٨
الثاني : اعتبار المصلحة في التشريع .....	٤٠
الثالث : العناية بالقواعد الكلية الجامعة .....	٤٢
الرابع : الدعوة إلى فتح باب العلم .....	٤٤
الخامس : عدم وجوب الالتزام بمذهب معين .....	٤٥

تنبيه : ليس معنى عدم الالتزام بمذهب معين هدم المذاهب .....	
ونقض التقليد .....	٤٨
المذاهب الأربعة ليست متباعدة .....	٥٠
معنى التطور في الشريعة .....	٥١
تحديد معنى الاجتهاد .....	٥١
تهمة باطللة وظن فاسد .....	٥٣
السياسة العادلة جزء من الشريعة الإسلامية .....	٥٦
خصائص الفقه الإسلامي .....	٦٠
رصيد الأمة المحمدية من الإيمان .....	٧٠
كمال يقين هذه الأمة .....	٧١
خصائص عامة للأمة المحمدية .....	٧٢
أولاً : رفع الإصر .....	٧٢
ثانياً : الإكرام بالرحمة الخاصة .....	٧٨
ثالثاً : جعلهم أمة وسطا .....	٨٠
رابعاً : يسر الشريعة المحمدية .....	٨١
خامساً : كمال الشريعة المحمدية .....	٨٢
سادساً : نورهم يسعى بين أيديهم .....	٨٣
سابعاً : كونهم خير أمة أخرجت للناس .....	٨٤
ثامناً : كون المسيح عيسى من أفراد هذه الأمة .....	٨٧
تاسعاً : ثبوت البشارة بالجنة لآخر هذه الأمة كما ثبتت لأولها .....	٨٧
عاشراً : ثبوت الفضل لآخر هذه الأمة كما ثبت لأولها .....	٨٨
الحادى عشر : وجود قبر نبينا ﷺ بالتعيين .....	٨٩
الثانى عشر : ذكر الأمة المحمدية فى الكتب السابقة .....	٩٠
الثالث عشر : أن هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة .....	٩٢
الرابع عشر : ان الله لا يهلك هذه الأمة بجوع ولا غرق .....	٩٣



الموضوعات	الصفحة
شبهات وأباطيل مردودة .....	٩٤
الإسلام هل هو نظام روحي فقط .....	٩٤
الإسلام والمادة .....	٩٦
الإسلام والمساواة الاجتماعية .....	٩٨
تصور خاطيء عن حقيقة الدعوة إلى تحكيم الإسلام .....	١٠١
حقيقة الإسلام الحاكم .....	١٠٣
مسك الختام — الوصية بالقرآن .....	١٠٦